لم أتوقع!

لم أتوقع

رواية

يسرية الديب

اسم الكتاب: لم أتوقع
اسم الكاتب: يسرية الديب
تدقيق لغوي وإخراج فني: محمود ربيع
تصميم الغلاف: محمد علي
رقم الإيداع: 2018/25011
الترقيم الدولي: 978-977-6056-90-9

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية،
أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ كتابيٍ من الناشر؛
يُعرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية.

شهرزاد للنشر والتوزيع

shahrazadpub@gmail.com

شهرزاد
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يا من تحمل روايتي بين يديك يجب أن تعلم كم عانيت، لقد كتبتُ هذه الرواية بكل أحساس لديّ، كنت أكتبها لأيام متواصلة ولا يستطيع جفني أن يغفو حتى يفرغ ما برأسي من كلمات، فهذه الرواية تحمل في كل حدث قصة، وفي كل قصه حدث، كتبتُها من وحي خيالي الذي عشق كل كلمة أكتبها وكأني أعيشها، كنت في قمة السعادة والحزن معًا عندما وضعت نقطت النهاية لروايتي هذه، كنت سعيدة لإتمامها بعد ليالٍ طويلة، ولكن حزنت بعد أن تذكرت أنني سأشتاق لشخصياتها وأحداثها وإحساسها، كم أتمنى أن تشعروا بنفس مقدار ما شعرتُ به عندما تصلون إلى نفس النقطة.

شكروإهداء:

لكل من شجعني على الاستمرار..

لعائلتي التي لم ولن أستطيع وصفها في بضع كلمات أو سطور..

لأصدقائي الذين ساندوني عندما شعرتُ بالإحباط للحظة، عندما أشعر أني لن أستطيع أن أكمل..

لمن هم سببٌ في اكتشاف موهبتي، وشجعوها بكل إخلاص وحب..

للذين هم جزءٌ لا يتجزأ من حياتي، وبالتأكيد سيعرفون أنفسهم إذا كانوا يقرؤون هذا الآن.

شكراً لكم..

الفصل الأول

(ألم الفقدان)

في صباح كل يوم كعادتي..

أستيقظ على صوت المنبه المزعج وأنا مرهقه يغلب عليّ النعاس، أقوم من على فراشي بثقل، أخطو كثَمِلة.. أدخل الحمام وأنعش نفسي بماء بارد، أفَرِّش أسناني لأذهب وأعد كوب إدماني، من يصبرني على العيش في هذه الحياة؛ كوب قهوتي.

اخذته وهَمَمتُ بالذهاب، ألتقط البالطو والمفاتيح، وقبل أن اغلق الباب ورائي ألتفتُ لأرى المشهد الذي اعتدت عليه كل يوم...

الفطور يملأ المائدة، أبي جالس يحتسي كوب الشاي ويقرأ الجريدة، ليقول بصوت عالٍ وبسخرية:

- أوووه! لقد تم إفلاس شركة (جاد) العالمية.

تتأفّف أمي وهي تحمل الأطباق من على المائدة، وتنادي بصوت يعلو صوت أبي:

- هيا يا (إمي)! ستتأخرين على أول يوم لك بالجامعة ولم تفطري بعد.
- (إمي)، يا (إمي)، ألا تسمعين أمك تنادي؟

تنزل فتاة مراهقة متعجرفة من على سلم المنزل بثقل وملل متوجهة للمائدة:

- أوف! لماذا تظلّون تزعجوني بكثرة مناداة اسمي؟! جعلتموني أكرهه، مرة واحدة تكفي.

يختفي كل ما أراه وأسمعه.. أبتسم بألم:

- كم كنت غبية!

أغلق الباب ذاهب إلى العيادة كروتين يومي، فأنا أعمل طبيبة طوارئ، وكل يوم أقابل حالات شنيعة وخطيرة، لأكون سببًا في إنقاذ حياتهم من جديد بعد الله، وأنا على هذه الحالة منذ أربع سنوات.

ذات يوم في آخر دقيقتين لي من الشيفت الليلي، جاءني نداء لحالةٍ خطيرة، ذهبت مسرعة أُسعفُها، فإذا بصبيّ غارق في دمه! كان ينزف من كل جزء من جسده تقريبًا، وأرى رجلًا تُوحِي هيأته المرتّبة والرُّجلان الضخمان خلفه بأنه ذو مكانة عالية، عندما عرف أني الطبيبة المسعفة لابنه جاء يطلب مني بتوسل وبكاء:

- أرجوكِ أنقذي ولدي، لا أريده أن يموت، أرجوكِ.

- اطمئنّ يا سيدي؛ سنفعل ما بوسعنا ليكون بخير.

أسرعت الممرضات بأخذه لغرفه الطوارئ، ودخلتُ لأفعل ما يتوجب عليّ فعله، كنا تحت ضغط وخوف بأن نفقد الصبي، فضربات قلبه تقلّ بشكل مخيف، يضعون له المحاليل المغذية، أحاول إيقاف النزيف، أضع له جهاز الأكسجين.

لنسمع صوت صفير جهاز ضربات القلب..

- لا! لن تموت، لن أستسلم، يجب أن تستيقظ.

أضغط بضم يدي على قلبة أحاول إنعاشه بكل قوة لديّ، أصرخ في الممرضات:

- أعطوني جهاز إنعاش القلب بسرعة.

أصعق قلبه أحاول إنعاشه، هيا، هيا أرجوك..

صوت صفير الجهاز لا يريد أن يتغير.. لأسمع صوت الاستسلام بداخلي، فشلت في إنقاذ حياته.

ألتقط أنفاس اليأس وأخرج بأسف لأبيه:

- البقاء لله.. آسفة، لم نستطع إنقاذ حياة ابنك.

أرى الصدمة تملأ وجهه، يُجنّ جنونه ويضع يده على عنقي محاولًا خنقي بقوة، يصرخ:

- ماذا؟! كيف؟! لقد كان حيًا! لقد قتلتِ ابني الوحيد أيتها الفاشلة، لماذا؟! لماذا لم تجعليه يعيش؟ سأدّفعكِ الثمن غاليًا.

أختنق، لا أستطيع التقاط أنفاسي، وكأن الدم لا يصل لرأسي، أكاد أموت من قوة قبضة يديه، يتجمع الناس ويأتي رجال الأمن ليدفعوه بعيدًا عني، وهو مازال يصرخ قائلًا وأنا أحاول التقاط انفاسي:

- سأحطمكِ وأحطم مستقبلكِ أيتها الفاشلة، لقد قتلتِ كل ما تبقّى لي في حياتي، سأقتلك.

حتى يتلاشى صوته المرتفع ويخرجوه من مكان تواجدي، تسقيني زميلتي الماء وتهدئ من روعي، أقف مستعيدة وعيي وهيأتي، لم يُنزلوا الناس أنظارهم عني ولم يكفوا عن التحديق، حتى ذهبت إلى مكتبي بكل انزعاج متأثره بما حدث.

تدخل صديقتي (سما) مكتبي تتفحصني:

- ماذا جرى يا (إمي)؟! لقد سمعتُ أن رجل تهجم عليكِ أمام غرفة الطوارئ! هل أنتِ بخير؟!

- لم يحدث شيء أنا بخير، أشكرك.

- كيف تركتِه يذهب بهذه السهولة؟! يجب أن ترفعي عليه قضية تهجم، لقد كاد أن يقتلك، أقسم بالله لو كنت متواجدة لما تركته يذهب بسلام، ولكنتُ كسرتُ له عظامه قبل أن يرفعها عليكِ.

- لا يا (سما)، ليست كل الأمور تحلّ هكذا، فيجب على الطبيب أن يقدّر موقف أهل المتوفّى، أنا حزينة على ذلك الرجل ولستُ غاضبة منه، ومقدّرة ما يمر به، كان يجب أن يخرج نار غضبه على أحد، ومن سوء حظي أنا من كنت أمامه.. هل تعلمين يا (سما) كم هو مؤلم حقًا أن تعتادي على شخص بأن يكون في حياتك دائمًا، تعيشي معه كل يوم وكل لحظة، يهتم بكِ وتهتمين به، أن يكون لكِ من يسأل عنكِ ويشتاق لكِ في غيابك، اعتدتِي أن تذهبي له في ضياعك، أن تشعري بالأمان والاهتمام من أحد وفجأة يختفي ذلك الشخص للأبد، ستشعرين هنا حقًا بالضياع الحقيقي والجنون والشك، وكره جميع من حولكِ، ستشعرين بالألم كلما تذكرته، وكأنه بركان داخلكِ يريد أن ينفجر غاضبًا من قرارات القدر.

خرج بعض الدمع من جفني بعد أن فشلتُ في حبسهم لسنوات، مسحتُ بكفي تلك الدموع البائسة حتى لا تفضَح الوحدة التي أعيشها.. لم تستفسر (سما) أكثر ولم تتكلم، فهي تعلمُ ما مررتُ به وما أعيشه، لأقول لها وأنا أبتسم رامية همومي خلفي:

- حسنًا، أعتذر لقد أطلتُ عليكِ، سوف أذهب أنا للمنزل الآن، انتبهي لنفسك وللمرضَى، إلى اللقاء.

خرجتُ من المشفى، ركبت سيارتي مُرهَقة، ذاهبة للراحة ومشتاقة لسريري بعد يوم سيء.. رن هاتفي، إنه الدكتور (طارق):

- ألو، كيف الحال دكتور (طارق)؟

- بخير والحمد لله.

- تفضل؟!

- آه.. نعم، كنتُ أريد أطمئن عليكِ مما حصل اليوم بالعيادة، هل أنتِ بخير؟!

- نعم دكتور (طارق) بخير، الحمد لله.

- حسنًا، كنت أود أن أسألكِ إن كنتِ متفرغه مساء الغد بعد أن ينتهي دوامكِ بالمشفى؟

- لماذا؟ هل ثمة مشكلة في العمل أو ما شابه؟

- لا لا.. إنها موضوع شخصي، يعني كنت أرغب في.. أن لو.. يعني نذهب إلى مطعم يليق بكِ ونتناول الغداء سويًا.

تداركتُ قصده وفهمت مغزاه، أردّ عليه متهربة:

- آه.. أنا أتشرف بتناول الغداء معك، ولكن أعتذر منك دكتور (طارق)، فأنا متعبة هذه الأيام، وأريد قسطًا من الراحة، لا تؤاخذني.

- آه حسنًا، بالطبع لا مشكلة، آسف إن أزعجتك دكتورة (إمي)، أتمنى أن تكوني بخير دائمًا، وداعًا.

- شكرًا لك، وداعًا.

آسفة يا (طارق)، حالتي النفسية لا تسمح بفتح مواضيع ولا مقابلة أحد، أو الدخول في أي علاقه الآن، أفضّل أن أكون وحدي كما اعتدت.

وصلتُ لمنزلي العزيز، أغلق سيارتي وأحمل اغراضي.. شعرت بأحدٍ خلفي يترقبني، ألتفتُ بسرعة.

لا يوجد أحد!

تجاهلتُ شعوري، فالحيّ الذي أسكن به هادئ جدًا وأقلّ صوتٍ يُسمع فيه، قد تكون قطة أو ما شابه، أفتح باب المنزل وأنا أشعر بعبْء على قلبي وضِيق، وضعتُ مفاتيحي على الطاولة وتوجهتُ إلى غرفتي أرمي بنفسي على السرير ممسكة بخاتمَي زواج أمي وأبي اللذان جعلتهما قلادة على رقبتي، لم تفارقني أبدًا بعد رحيلهما.. أرمي الدمع الثقيل الذي تعبَ جفني من حمله، أتمنّى لو يعود بي الزمن ولو لدقائق؛ لأسمع الصوت الذي أدمنتُ أذني سماعه وهو ينادي باسمي، الصوت الذي يسمعه قلبي قبل أذني، ذلك الصوت الذي ينقل موجات من الحنان والحب والاطمئنان، أو حتى لأرى البسمة التي كانت توقفني بعد تعثر تشعرني أني بخير، وأنه لن يصبني أي مكروه، أو حتى.. ولو لثوانٍ، أشعر بتلك اليد التي كانت تمسح على شعري فتُزيل عني عبء العالم بأكمله مهما كان ثقيلًا.. أبي، أمي..

لمَ تركتماني وحدي؟!

لمَ لم تأخذاني معكما؟!

لمَ ذهبتما قبل أن أودّعكما وأقول لكما كَم قلبي يحبُّكما وحواسي تعيش على أصواتكما؟!

لمَ ذهبتما قبل أن أطلب منكما أن تسامحا ذلك اللسان الذي لا طالما أحزنكما؟!

لمَ ذهبتما فجأة؟!

ظلّت الدموع النادمة تتسابق على وسادتي حتى يتعب جفني ويغفو..

***

أستيقظ على ألم الرأس المعتاد، أقوم وأضع يدي على جبهتي من شدته، أنظر للساعة:

إنها السابعة صباحًا! ما الذي أقَضّني مبكرًا هكذا؟!

قمتُ لأخذ فنجان قهوة وبعض الحبوب المسكنة لعلّه يخفّف الألم، توجهتُ إلى النافذة أتأمل السماء للحظات، وأسأل نفسي:

هل سأبقى وحيدة هكذا طوال عمري حتى أموت؟!

هل سيبقى قلبي لا يقبل أحدً بعدهما؟!

هل ستبقى ذكرى والداي في خيالي دائمًا؛ لأشعر بنفس الوحدة والألم كل يوم؟!

يا الله، صبّرني.. فقد ندمت على عصيانِي لهما، أعلم أني كنت أعصِيكَ قبل أن أعصِيهما ولكن.. ها هو جزائي أتلقاه، هوّن عليّ قليلًا، أنت وحدكَ تعلم حالتي وتعيش معي كل لحظة أشعر فيها بالضيق والوحدة، وتعلَم كم هو صعب ذلك الشعور.

أخرج ما في رئتي من زفير يائس، أمسك بهاتفي وأتفحص الرسائل الحديثة، لأجد رسالة من دكتور (طارق):

«صباح مبتهجٌ بابتسامتك»

هل أعطيه مجالًا للتقرب مني؟ هل يمكنه أن يعوضني عن الحزن والوحدة التي أعيشها؟ إنه دكتور مثلي ورجل مثقف ووسيم وذو مكانة، لمَ لا أعطيه فرصة؟ فقد يُحيِي في قلبي معنى الحب من جديد.

أمسك هاتفي لأرد عليه:

«صباح الخير دكتور (طارق)..

أتمنى أن تكون بخير، أنا متفرغة بعد الشيفت الصباحي لي بالعيادة، إن كان عرضك لازال ساريًا»

***

الفصل الثاني
(محاولة للهرب من وحدتي)

ذهبت أرتدي ملابسي وأذهب إلى العيادة، فتحت باب المنزل، أغلقتُ الأنوار استعدادًا للذهاب.. فأجد ظرفًا على عتبت الباب!

ألتقطه وأغلق الباب، أتفحصه، سأفتحه بالمكتب حتى لا أتأخر.

دخلتُ العيادة متوجهة إلى مكتبي، ألتقي بصديقتي (سما) بالممَر، تلقي عليّ التحية:

- كيف حالكِ يا (إمي)؟ لمَ وجهكِ شاحب اليوم؟ ألم تنامي جيدًا؟!
- نعم تعبتُ قليلًا بالأمس.

تبتسم ابتسامة غريبة تمازحني:

- آه حتى لا أنسى يا مذوّبة قلوب الرجال، لقد جاء رجل وسيم بالأمس يسأل عنكِ، فقلت له أنكِ ذهبتِ للمنزل من نصف ساعة، قال لي: هل يمكنكِ أن تعطيني عنوانها؟ أنا زميلها أيام الجامعة، وبعد التخرج لم أعُد أرها، وعندما عرفتُ أنها تعمل في هذه العيادة وددتُ أن أرسل لها بعض الزهور والجلوس معها قليلًا.

شعرتُ بسعادة أن هناك رجلٌ وسيم ومثقف كهذا يسأل عنكِ، قد يدخل في حياتك ويغيرها لكِ؛ فأعطيته العنوان.. هل كان معجبًا بك أيام الجامعة ليتذكرك بعد كل هذه الفترة؟ وهل أهداكِ بعض الزهور الجميلة؟

- هل أنتِ ساذجة لهذه الدرجة يا (سما)؟! كيف تعطي رجلًا غريبًا عنواني؟ هل جننتِ؟!.. وقلتُ لكِي مليون مرة لا يوجد من يغيّر حياتي، ولا أريد من أحد أن يقدم تلك الخدمة الإنسانية الخارقة.

- حسنًا... حسنًا أنا آسفة حقًا، لم أعلم أنك ستنزعجين لهذه الدرجة صدقيني، ولكني شعرتُ أنه شخص جيد.

تركتُها بتذمر وذهبت إلى مكتبي منزعجة...

يا لسذاجة (سما) الزائدة، دائمًا ما تظن أن جميع الناس أنقياء وطيبين القلب مثلها.. يا تُرى من هذا الرجل؟! وماذا كان يريد مني؟ قد يكون هوَ من وضع هذا الظرف عند باب منزلي!

ألتقط الظرف من على مكتبي لأفتحه..

ماذا؟! إنه استدعاء للمحكمة من السيد (جاد رأفت)! بالتأكيد ذلك الرجل الذي توفي ابنه هنا! يا إلهي.. هذا ما كان ينقصني، وغدًا أيضًا الساعة العاشرة صباحًا في يوم أجازتي! تبًا..

أغلقتُ الظرف ووضعته في الدرج بكل انزعاج، جلستُ أوقّع ملفات حالاتي التي على مكتبي.. يرن هاتف المكتب:

- مرحبًا.

- مرحبًا يا (إمي)، تعالي إلى مكتبي رجاء.

- حسنًا دكتور (طارق)، أنا قادمة.

أغلقتُ الهاتف، ذاهبة له، أطرق الباب وأدخل:

- مرحبًا دكتور.

- تفضلي بالجلوس يا دكتورة (إمي).

يكمل بعد أن جلست:

- هل تعلمين أنه قد جاءك استدعاء للمحكمة من السيد الذي توفيّ ابنه هنا بعيادتي؟

- نعم أعرف، ولكن كأنّ هذا الاسم مألوف لي؟!

- بالطبع يجب أن يكون مألوفًا لكِ، إنه رجل أعمال كبير وسيطه في أرجاء المدينة، قد يكون خطرًا، وأخاف عليك منه.. أنتِ لست المذنبة، الكل يعلم هذا وستكسبين القضية بكل تأكيد، ولكن ما يقلقني أن هذا الرجل ثري ويمكن أن يفعل أي شيء بماله، وقد يؤثر على مهنتكِ وعلى اسم العيادة، وأنا لا أتمنى هذا.. ولهذا أمّنتُ لكي محاميًا جيدًا صديقي، ومعروف بقضاياه الناجحة، وصّيتُه أن يخرجكِ من هذه القضية بسرعة، فلا تقلقي.

- أشكركَ على مساعدتك يا دكتور (طارق)، وبإذن الله لن يسوء الأمر.

يغير هيأته كمدير، ويقول بلطف:

- لقد رأيتُ رسالتكِ عندما استيقظتُ صباحًا، وكنت في قمة السعادة بأنكِ وافقتي.. هيا دعينا نذهب الآن؛ فأنا لم آكل شيئًا بعد رسالتك؛ كي نأكل سويًا.

- ولكن يا دكتور إنه ليس وقت استراحتي بعد.

- بلى، اليوم سيكون هو يوم أجازتك؛ بما أن غدًا لن تستطيعي الاستمتاع به.

نهض يلتقط بحماس سترته ومفاتيح سيارته، وجاء إليّ يمد يده ليمسك بيدي، قمت من دون أن أمسك بيده مبتسمة:

- سأتدبر أمري، شكرًا لك دكتور.

- أرجوكِ، لا داعي للرسميات هذه الآن، فقد أصبحنا أقرب من هذا.

متعجبة من طريقته، لم أعتَد على الدكتور (طارق) أن يكون بهذا اللطف، خرجنا من المشفى، وسبقني بخطوتين؛ ليفتح لي باب سيارته:

- تفضلي يا آنسة (إمي)، بما أني عرضتُ عليك فكرة الغداء فأنا من سيوصلك ويعيدك بسيارته.

ابتسمتُ له باستسلام وركبت..

لا أعلم ولكني أشعر بأنه غريب الأطوار قليلًا، أو يتعامل معي كأننا أصدقاء منذ سنوات، أشعر أني غير مرتاحة:

- يجب أن تعلمي أني لم أفتح باب سيارتي من قبل لأي شخص مهما كان.

- لماذا؟! ألم تعرض الغداء على فتيات أخريات من قبل؟!

- لا... بالتأكيد فعلت، ولكن الأمر مختلف معك.

- كيف؟! لم أفهم.

يبتسم ابتسامه غريبة، ويبدأ بالضغط على البنزين بقوة، وتبدأ سرعه السيارة في تزايد، يقود بتهور على الطريق السريع، تشبثْتُ بمقعدي خائفة:

- تمهل أرجوك، لمَ أنت مسرعٌ هكذا؟ أرجوك أبطِئ قليلًا؛ فأنا أعاني من فوبيا، أرجوك.

لا يستمع لكلامي وسرعة السيارة في ازدياد، ليقول بصوت مرتفع غير مبالٍ لخوفي:

- هكذا هو حبي لكي يا (إمي)، دائمًا في ازدياد ولا أستطيع التحكم به، ولا يستطيع أحد إيقافه، من اليوم الذي جئتِ فيه للعيادة وعيني لم تسقط عنك ولا تفارقي فكري، دائمًا تشغلين بالي، قد تعتبريني مجنونًا، ولكن هكذا أنا... أحبك.

تقابلنا شاحنة كبيره لتبدأ لقطات من كابوس حادث قديم تُعرَض أمام عيني.. أغمض عيني متشبثة بمكاني، وأصرخ صرخة أفقد بعدها وعيِي.

..

أسمع أحدًا ينادي على اسمي:

- (إمي)، (إمي) استيقظي أرجوك، أنا آسف.

أفتح عيني شيئًا فشيئًا.. لأجد (طارق) قريبًا مني، يمسح على شعري ويقظني، أنفاسه تكاد تخنقني، قمتُ وأبعدته عني بقوة لأخرج من سيارته والأرض تدور حولي، أشعر أني ثملة، يخرج ورائي مسرعًا ويمسك بي:

- انتظرِي.. تمهلي قليلًا، أين ستذهبين؟!

أدفع يده التي لا أطيقها على جسمي بقوة وأنا دائخة لا أرى أمامي، لا يِيْأس من اللحاق بي، يمسكني خشية أن أقع، أصرخ بإجهاد في وجهه قائلة:

- لا تلمسني! أرجوك كفى.

حتى وقفَت لي سيارة أجرة، ركبتُ بها وتركته.. كنتُ مصدومة مما فعله، لم أتوقع أن يفعل بي هذا، لماذا؟!

***

الفصل الثالث
(أُعاقَب على ذنبٍ لم أرتكبه)

في اليوم التالي استيقظتُ مبكرًا بعد أن رأيتُ حلمًا غريبًا..

رجل يختبئ خلف شجرة كبيرة، عينه تترقبني من بعيد ويمد لي يديه بخاتمَي زواج والديّ! لم أشعر أني خائفة منه، اقتربتُ؛ لأرى ما به و من يكون! فملامح وجهه غير واضحة، ولكني مهما اقتربتُ منه لا تتغير المسافة بيني وبينه، مهما اقتربتُ منه لا أصل إليه، وكأني أمشي في مكاني!

كان حلمًا غريبًا، مَن ذلك الرجل؟! ومن أين له بخاتمي زواج والديّ؟! لم أفهم شيئًا، ولكن أشعر بشيء غريب تجاه ذلك المجهول.

أفتح كتاب خواطري أكتب:

ذاك الشعور.. حيث أنيّ أقترب إليك.. من تفاصيل روحي ولا أعلم حتى لون عينك.. ولا أي شيء يرشدني إليك..

سوى أن أدَع سبل إلقاء من نبض قلب يشابه قلبك.. خفقي الذي بين صدري مفتاح للتلاقي...

لا أدري إذا كنتَ قد قاسيتَ مثلي، وجُرحتَ من قلوب تلبسَت بحلّتي؛ فتركتَ في مضيها ندبات تؤلمك.. لكنني متيقّنة عندما ألتقي بك سأنسيكَ أمرها؛ لأنني سآخذها وأخفيها عنك.. وستأخذ ندباتي لتضعها في أماكن لا أثر لها.

***

توجهتُ للحمام أستحم بماء دافئ وأريح جسمي وعقلي قليلًا قبل أن أذهب للمحكمة، خرجتُ من الحمام أجفّف شعري بالمنشفة.. تصلني رسالة من (د. طارق) على هاتفي..

«أعلم أنني تهورتُ بالأمس، ولكني لم أقصد إيذائك صدقيني، أنا حقًا آسف»

أغلقتُ الهاتف غير مهتمة لاعتذاره وذهبت ألبس ملابسي وأستعد للذهاب، أنظر لساعة الحائط:

أفف، لازال الوقت مبكرًا جدًا على المحكمة، سأذهب لأقتضي بعض الأغراض من السوبر ماركت إذًا.

أغلقتُ باب منزلي وركبت سيارتي، بالي مشغول فيما سيحدث في المحكمة، وهل يمكن لهذا الرجل بأن يرشِي المحققين؟ وأن يستغل ثغرات القانون فعلًا؟ أهذا هو جزاء من يساعد الناس؟! لقد درستُ الطب لسبع سنوات حتى أذهب للمحكمة! كم هذا جميلًا.

- آآآه الله المعين.

ركنت سيارتي أمام السوبر ماركت ودخلت لأقتضي بعض الأغراض، جاءني اتصال من رقم غريب! أجيب:

- مرحبًا، من معي؟

- من الأفضل أن تخسري القضية بنفسك حتى لا تندمي وتخسري حياتك بأكملها.

يثير غضبي بتهديده؛ فأجد نفسي أنفجر فيه:

- يا رجل، لقد مات ولدك وكان هذا قدره.. هل تهدّدني؟ لا يوجد لدي شيء لأخسره، افعل ما يحلو لك.

أغلقتُ الهاتف بغضب والخوف والقلق يجول بخاطري، تحدق بي الناس باستغراب! لابد أن الصوت كان مرتفعًا.. يا الله أخرجني سالمة من هذه المصيبة.

أخذتُ مشترياتي وعدت للمنزل، أفتح الباب، لأشعر مره أخرى بأحدٍ خلفي.. ألتفتُ بسرعة.. لا يوجد أحد!

خفتُ كثيرًا ودخلت للمنزل مسرعة مُحكمة أغلاق الباب حتى أطمئِن، لا بد أن هذا الرجل سيسبّب لي رعبًا.

..

جلستُ أتناول فطوري على المائدة وحدي، أتمنى لو أن أبي وأمي جالسَين عليها، أشعر بطيفهم في كل زاوية من المنزل.. تحسّست رقبتي أمسك بقلادتي، ولكن...! يا إلهي أين ذهبَت؟!

تركتُ فطوري وقمتُ أبحث عنها قلقة من أن لا أجدها، بحثت تحت الطاولة، تحت وسائد الأريكة وفي الحمام، في كل مكان تقريبًا.. يا الله أين اختفت؟!.

نظرت للساعة، أصبحَت العاشرة سريعًا! يجب أن أذهب إلى المحكمة الآن؛ كي لا أتأخر، سأبحث عن القلادة عند عودتي.

ركبتُ سيارتي متوجهة للمحكمة غير مرتاحة لهذا اليوم وما سيدور فيه.. تتبّعت موقع المحكمة على جهاز الخرائط، فهذه أول مرة أدخل للمحكمة في حياتي، الله معي وسيعينني.

نزلتُ وأغلقت باب سيارتي، لفتَت نظري سيارة يظهر عليها الفخامة والغلاء، يخرج منها السائق متوجهًا للباب الخلفي، يفتحه حتى يخرج ذلك الرجل المتسبب في إحضاري إلى هنا، يا إلهي! لابد أني وقعتُ في شر أعمالي، تبًا لكَ ولمالك.. زاد القلق حينها، لأجدَ رجلًا متجهًا نحوي يصافحني:

- مرحبًا، لابد أنكِ الدكتورة (إمي)، أنا (سامي) المحامي المسؤول عن قضيتك.

- آه نعم صحيح، أنا (إمي)، سررتُ بمعرفتك.

- لقد سمعتُ ما حصل من مديرك الدكتور (طارق)، إذا سمحت فلنجلِس في الاستراحة ولتخبريني أكثر عن الموضوع، واحكيه لي باختصار وبتحديد الأوقات؛ حتى أكون واثقًا من أدلّتي التي أحضَرتها، يوجد لدينا متسعٌ من الوقت على بدء الجلسة.

- حسنًا.. بالتأكيد، لقد جاء ذلك الرجل الذي يدعى السيد (جاد) يطلب النجدة في قسم الطوارئ، كان ابنه مستلقيًا على سرير الإسعاف غائبًا عن الوعي وينزف، كانت الساعة الواحدة وثمانٍ وعشرين دقيقة ليلًا، ومن المفترض أن ينتهي دوامي بعد دقيقتين، أسرعتُ بإسعاف الولد، فقد كان جسده متضررًا بالكامل والجروح في أماكن خطيرة؛ كالعنق، والرأس، والبطن، كان الدم ينهمر منه بشكل جنوني، حاولنا إيقاف النزيف بكل الطرق وتعويضه بالمحاليل المغذية، حاولتُ جاهدة بعد توقف قلبه إنعاشه من جديد لعلّي أستطيع إنقاذه.. ولكن بلا جدوى، فقد توقّف تمامًا، ويئستُ أنا وفريقي من أن يعود نبض قلبه مرة أخرى، ذهبتُ لأخبر السيد (جاد) بما جرى، وأن ابنه قد فارق الحياة، لم يصدق أن ولده تُوفيّ بسبب النزيف، كانت الصدمة قوية عليه، فجُنّ جنونه وأمسك برقبتي يحاول خنقي، حتى أبعده الأمن، وفقط.

- همم، حسنًا هذا جيد، كل ما أريده منكِ أن لا تقلقي يا آنسة (إمي)، فموقفُك سليم مئة بالمئة كوني مطمئنة، أنتِ طبيبة وفعلتِ ما عليكِ فعله، ويمكنني أيضًا أن أرفع لكِ قضية لتهجُّمه عليك إن أردتِ.

نادَوا على أسمائنا لبدء المحاكمة، دخلنا ووقفنا أماكننا حتى جلس القاضي فجلس جميع الحضور، نادى حاجب المحكمة:

- ليقِف محامي السيد (جاد رأفت كساب) صاحب القضية الموجهة للطبيبة (إمي سلامة) ويقول أقواله.

وقف المحامي وقال للقاضي:

- سيدي، إنه أب يريد أن يأخذ حق ابنه الذي توفي بسبب الإهمال الذي كان من الطبيبة (إمي سلامة) والمسؤولة عن حالة إسعاف أبنه، فقد جاء إلى تلك المشفَى مستنجدًا بهم ليساعدوه، ولكنه لم يجد سوى اللامبالاة والإهمال والتكاسل عن أداء واجبهم كأطباء، جعلوا ابنه ينزف حتى جفّت عروقه ومات.. سيدي القاضي، إنه يريد جزاء موظفٍ أهمل في أداء واجبه، ويريد حق ابنه الذي لا يملك سواه في هذه الدنيا، وشكرًا.

ليقول القاضي:

- سنعتمد أقوالَكَ أيها المحامي، وليقف وكيل المدعّى عليها.

يقف المحامي (سامي):

- سيدي الكريم، إن الأب يريد حق ابنه من قاتلِه، وهي ليست الطبيبة (إمي)، إنما هو صاحب الشاحنة التي صَدَمت ابنه وهو يقود السيارة ثَمِلاً، نعم فقد تعرّض إلى حادث قبل أن يأتي إلى المشفى، وتم تأكيد أن ابنه كان يقود ثملًا على الطريق وهذه قضيه أخرى، غير أن كاميرات الطرق رصَدَتْه مسرعًا فوق السرعة المحددة للطريق، فنحن نعلم طيش الشباب هذه الأيام، وعلى ما هو واضح أن الأب الثري لم يربِّي ابنه إلا على الاستهتار واللامبالاة، ظل الصبي ينزف ويعاني حتى تصل الناس لأحد من أهله ليتولاه بدلًا من الاتصال بالإسعاف، وبالطبع السيد (جاد) كان منهمكًا في أشغاله لا يعلم شيئًا عن ابنه، وعندما وصل له الخبر وهو جالس على مكتبه ذهب يلقي عليه نظرة ثم يأتي به إلى المشفى ويتهم الطبيبة (إمي) بالإهمال والقتل العمد، ولكن الحقيقة هي إهمال الأب.. ولقد استطَعْنا من الشريط المسجل بكاميرات الطرق التي رصدت الحادث أنّ وقت وقوع الحادثة كان الثانية عشرة، وجاء الأب بابنه إلى قسم الطوارئ الساعة الواحدة ونصف، وهذا الوقت

كافٍ لتصفية دماء أي بشري.. سيدي القاضي، ما أريد توضيحه أن الأب هو المتسبب الثاني في مقتل ابنه بعد صاحب الشاحنة لإهماله في سُبُل سلامة ابنه وتربيته السيئة، فالأطباء لا يعيدون الأرواح لأصحابها، بل ينقذوهم إذا استطاعوا ذلك، وفي كلتا الحالتين يجب أن نشكرهم لمحاولتهم في المساعدة، وليس التهجم عليهم في ممرات المشفى ومقاضاتهم في المحاكم، وشكرًا.

يجلس المحامي بعد أن أنهى مرافعته، وظل القضاة يتناقشون في كلام الطرفين؛ ليصلوا إلى الحكم العادل، يبدأ القاضي بالحكم:

- نظرًا للمُدة التي استغرقها السيد (جاد) في إحضار ابنه إلى المشفى والتأكد من المخالفات التي قام بها ابن السيد (جاد كساب) قبل وفاته، تم الإعفاء عن الطبيبة (إمي سلامه) لبراءتها من الموقف وخروج الأمر عن سيطرتها، وسيتم إعادة التحقيق مع السيد (جاد) حول القضية، رُفعَت الجلسة.

..

لم أصدق ما سمعت، حمدتُ ربي لوقوفه معي ونصري على ذلك الرجل، ولكن رأيته ينظر لي نظرة يملأها الغضب والانتقام.. لم أخف منه لوقوف الحق معي، ولكن سبب قلقي هو أن مثل هذا النوع من الرجال قد يستطيعُ فعل أي شيء.. سأتجاهله بحذر وأكون قوية أمامه، خرجنا من المحكمة مصافحه أستاذ (سامي):

- أشكركَ كثيرًا على كلامك المنطقي الذي أقنع القضاة، أنت حقًا محامٍ بارع.

- لا شكر على واجب يا آنسة (إمي)، تفضلي رقمي إن احتجتِ إلى أي مساعدة أنا تحت أمرك، فقد أوصاني عليكِ السيد (طارق) بشكل خاص.

- نعم بكل تأكيد يا أستاذ (سامي)، إن احتجت لمحام -والعياذ بالله-

ستكون أنت أول من أتصل به، أشكرك حقًا على مجهودك اليوم، أراك في وقت لاحق.

- هههه، إلى اللقاء يا آنسة، أراكِ فيما بعد.

ركبتُ سيارتي لأذهب بانتصاري على ذلك الرجل، ولازلتُ مشغولة البال فيما قد يفعله بعد أن خسر القضية، أشعر أنه لن يتركني ولا يزال معتقدًا أني من قتل ولده، إنه مجنون حقًا.

بعد ثوان..

ألاحظ سيارتين كبيرتين ذات اللون الأسود يلاحقاني ويقتربان مني بشكل مخيف، انتابني الرعب وشعرت بقشعريرة في أنحاء جسدي، أُسرع بسيارتي لأختفي عن أنظارهم بين الشوارع الضيقة.. أترقبهم في مرآتي حتى تأكدتُ أنهم ضلوا طريقي واختفوا، أكملتُ طريقي للمنزل وأنا لا أزال أراقب السيارات من حولي حتى وصلتُ بسلام، أغلقتُ سيارتي ونزلت منها بسرعة؛ كي أدخل إلى المنزل وأحتمي به، لأجد السيارتين مرة أخرى فأركض إلى باب المنزل بسرعة تفوق سرعة نبضات قلبي.. يدِي ترتعش لا أستطيع السيطرة على أعصابي، تقع من يدي المفاتيح، وإذ برجال ينزلون من السيارة مسرعين نحوي، انحنَيت لألتقط المفاتيح من على الأرض.. لا أشعر بأطراف يدي من الخوف.. يقتربون مني بسرعة.. أهرب للاتجاه المعاكس، أركض بهلع لأرتطم برَجُلان من الجهة الأخرى يسدان الطريق.. توقف عقلي عن التفكير وتجمدَت قدماي.

أصرخ بأعلى صوت لدي لعلّ يسمعني أحدًا، أشعر بأحدهم من الخلف يضربني على رأسي بشيء صلب مثل الصخر.. أفقد الوعي من قوة الضربة ولا أشعر بشيء بعدها.

***

الفصل الرابع
(أين أنا؟! ومن أنت؟!)

أستيقظ فَزِعةً على صوت طلقة مسدس، أفتح عيني وأتفحص المكان.. أجد نفسي في مكان غريب..

إنها غرفة غريبة تعمّ فيها الفوضى، مستلقية على سرير أحدهم مغطاة بملابس ليست بملابسي! ليبدأ ألم حاد خلف رأسي وفي أنحاء جسمي، ويمتزج الألم والخوف لينتابني رعب شديد لم أشعر به من قبل.. أنا لا أتذكر أي شيء.. أين أنا؟!

أقاوم الألم وأقوم من على السرير، تقع ورقة من عليّ على الأرض، ألتقطها، لأجد رسالة مكتوبٌ فيها:

(أنا آسف.. أنا حقًا آسف، لا أعلم ما ستقولين أو ما ستفعلين، ولكن أيًا ما تعتقدين عني أو تحكمين، يجب أن تعلمي أني لم أقترب منكِ، فقد كنت ثملًا حينما رأيتكِ ملقاة بجانب الطريق وأنا أقود، وملابسكِ تبيّن أجزاءً من جسدك، أصبحَت الأفكار الشيطانية تتلاعب في رأسي لأوقف سيارتي وأحملكِ فيها، سِرتُ بسيارتي ولا أعلم إلى أين أنا ذاهب، وحينما وجدتُ ذلك البيت الصغير في مكان مظلم ومجهول وليس عليه ملامح للحياة أوقفت السيارة وحملتكِ للمنزل واتجهت لتلك الغرفة بالأعلى لعلّ يكون بها سريرًا لأضعك عليه، وبدأت أبحث عن بعض الملابس أغطّي بها أجزاء جسدك المكشوفة، لا أعلم لماذا أفعل هذا! ولكني بعدها وجدتُ نفسي مغمًا عليّ بجانبك.. فقط هذا ما حدث، وأتأسف لكِ مرة أخرى، فأنا لستُ شخصًا سيئًا).

أغلقتُ الورقة بعد أن وجدت بعض الأجوبة لأسئلة كادت أن تقتلني، ولكن مازال الخوف يتبعني، يجب أن أبحث عن شيء أدافع به عن نفسي وأخرج من هذا المكان.. تقع عيني على عصا ستارة النافذة، قمتُ وسحبتُ الستارة بقوة؛ كي تنفصل عن العصا وتقع على الأرض، أخذتُها وبدأت بكل خوف وتوتر أتفحص هذا المكان الغريب.

أخطو خطواتٍ حذرة من إصدار صوت، أنزل من على السلم بتمهل، عيني لم تكن ترمش لحظه.. أشعر بأن أحدًا ما ينتظرني بالأسفل.. ولكن....

وجدت دمًا يسيل من خلف الأريكة!

تصيبني القشعريرة والفضول لمعرفة مصدر هذا الدم، أخطو نحو الأريكة بتمهل وخوف وعيني تتتبّع مصدر الدم، أُمسك العصا بقوة على استعداد للهجوم.. فأجد رجلًا مستلقيًا على الأريكة، معصمه مقطوع ودمه يسيل على الأرض والسكين بجانبه، يبدو أنه حاول الانتحار!

رميتُ العصا وأسرعتُ إلى الرجل أُسعِفَه، سحبت مفرش الطاولة وربطتُ به معصمه جيدًا حتى أوقف النزيف، وذهبت مسرعة أبحث عن صندوق إسعافات في ذلك المكان الغريب، لم أجد، توجهتُ إلى مرآة الحمام لعل يكون بها شيء.

وجدتُ على رفوفها ما يفي بالغرض، عدتُ للرجل أطهّر له جرحه وألفّ معصمه بالشاش جيدًا، جعلته يستلقي بطريقة صحيحة حتى لا يخرج الدم بسهولة، ذهبتُ لأحضر بعض الماء البارد أكمّده به على أمَلٍ أن يستعيد وعيه، ولكن في الحقيقة كنت أنا التي تفقِدُ وعيها والتعب والألم يغلب عليّ، ولكن الخوف والقلق لا يسمح لجفني بأن يغفو، ولا لعقلي بأن يستريح.

بعد قليل لاحظتُ الرجل يتحركُ نوعًا ما، وبدأَت عينه تتفحص المكان.. تأتي عينه عليّ؛ فيهِبُّ محاولًا الجلوس ليلقيه التعب نائمًا مرة أخرى:

- استَرِح؛ لقد فقدتَ كمية هائلة من الدم، من المعجزة أنكَ استعدتَ وعيك، استرخِي وسأحضر لك ماءً بسكر حتى يستطيع جسمُك تعويض ما فقده.

قمت أبحث عن بعض السكر وأي شيء يؤكل في هذا البيت، أفتح ثلاجة لأجد بها بعض بقايا الطعام التي تدلّ بأن أحدًا يعيش في المنزل الصغير المهجور، ووجدتُ علبة صغيره تحتوي على القليل من السكر.

لا يزال القلق والخوف يشغلُ بالي، ولكني أتظاهر بالشجاعة حتى لا يشعر بضعفي، أحضرتُ له الطعام ومشروبَ الجلكوز الذي أعددته:

- لماذا أنقذتِني؟! كان موتي أرحم للجميع.

- إنها وظيفتي وتوجّب عليّ فعل هذا، ومن المعتاد عندي أن أرى حالات تشبه حالتك هذه، أنا لا أعرفك ولكن.. أريد ان أقول لك شيئًا لعلّه يفيدك فيما بعد، من الضعف والجبن أن تهرب من مشاكلك وحياتك بهذه الطريقة، لابد من أن تواجهها وتقضي عليها مهما كانت كبيرة، لستَ أنت من وهبت لنفسك الحياة كي تنهيها وقت ما تحب، أياً يكن الآن، بأذن الله ستتعافَى وتصبح بخير مع الوقت، يجب أن تسترخي ولا تجهد نفسك، لقد قرأتُ رسالتك.. أشكرك على مساعدتك، إلى اللقاء.

كان رده على كلامي، ابتسامة هادئة بسخرية غريبة، تجاهلته وتوجهت للباب أفتحه، لأجد نفسي أمام البحر والباقي فناء!

أتفحص المكان بعيني غير مستوعبة ما تراه، كأنها جزيرة منعزلة عن العالم! نظرت يميني على الأرض؛ لتصيبني قشعريرة الخوف لدرجة أنني أسمع دقات قلبي من سرعتها!

إنها.. إنها.. جثة رجل ملقًا على ظهره والرصاصة تحشو جمجمته ويسيل الدم حوله!!

ترجع ذاكرتي إلى صوت الطلقة التي أيقظتني!

دخلتُ وأغلقتُ الباب مسرعة والخوف والهلع يغرقني، فأستوعِبُ أني أغلقت الباب عليّ وعلى هذا المجرم وحدنا! ليقول لي باستهزاء:

- هل أعجبكِ المكان؟

أصرخ بحرقة في وجهه:

- أنت!.. أنت أيها المجرم الحقير، لقد قتلتَ ذلك الرجل واستغلَلتَ ضعفه لتتهجم عليه وتستولى على منزله وتقول بأنكَ لستَ شخصًا سيئًا، أتظنني صدقتُ ما قلته ووثقتُ برجل غريب ومجرم مثلك يسهر الليالي ثَمِلًا في الطرقات والحانات القذرة، أيها الجبان، كيف تجرُؤ على فعل هذا؟! أليس في قلبك رحمة؟!

يرد على كلامي بكل هدوء ولا مبالاة:

- المسدس الذي قتلتُ به الرجل كنت لأقتل نفسي به خيرًا من ألم السكين، فكيف لي أن أقتله بمسدس وأنا لا أملكه؟

سكت لحظات لأعقل كلامه الغير مقنع:

- إذًا من الذي قتله؟!

- قتله من سرق سيارتي.. فقد خرجتُ أبحث عنها وأذهب عن هذا المكان الذي لا معالم له وأعود حيث أتَيت، ولكني لم أجدها ووجدتُ هذا الرجل مقتولًا بمسدس أحدهم، حاولتُ أن أنقذه ولكني فاشل في هذه الأمور، لم أفكر سوى أن أجد طريقة ما تخرجني من هنا بأقصى سرعة، بحثتُ كثيرًا، بلا جدوى سألت نفسي كيف أتيت إلى هنا ولا أستطيع العودة؟!.. فتذكرتُ أني عندما كنت ثملًا لم أكن أنا، ولا أتذكر شيئًا غير أني أفرطتُ في الشرب بالأمس، فلا معالم في هذا المكان يدل على وجود سكان، وكأنها غابة لا نهاية لها، عدتُ خائب الأمل لأموت في هذا الكوخ خيرًا من الموت جائعًا أو تائهًا أو مأكولًا من الحيوانات المفترسة والضباع.

قلت له مكذبة ومشككة لكلامه:

- لا.. لا، أنت كاذب، تريد أن تحبسني هنا معك، بالتأكيد هناك طريقة للخروج من هنا، أيعقل أن يكون هناك طريقة للدخول ولا يوجد طريقة للخروج!

تركته وخرجت بهلع أجري وأجري لعلي أجد سيارة أو شخصًا يساعدني على الوصول إلى المدينة و الخروج من هنا، لا أجد سوى المزيد من الأشجار وصوت النسور والضباع المخيفة كلّما ابتعدت.. وكأنه حقًا لا يوجد بشريّ يعيش في هذا المكان سوانا.. ما هذا المكان؟!

أشعر أنني أحلم، لا أصدق ما أنا فيه، بالتأكيد إنه حلم!

أجري وأجري كالمجنونة، لابد أن أطلب النجدة، لابد أن أستيقظ من هذا الكابوس..

بلا جدوى.. لا أجد نفسي سوى أنني في دائرة كبيرة! وكأنها كما قال؛ غابة تائهة بلا نهاية.

شعرتُ بخيبة أمل وانكسار داخلي، شعرتُ بأنها نهايتي.

كيف لي أن أستيقظ وأجد نفسي في مكان غريب مع شخص غريب ولا أستطيع الخروج؟! كيف؟!

ركعتُ على ركبتي بعد أن أُرهَقَت قدمي من الجري ويئِسَت عيني من البحث، ركعتُ مستسلمة ومنهارة من البكاء، ركعتُ وركعَتْ دموعي معي.

أهذا كل شيء؟! أهذه نهايتي وآخر مستقبلي؟! هل انتهى كل شيء هكذا بسهولة؟! هل سأعيش هنا باقي حياتي مع هذا المجرم حتى الموت؟!

تنزف الدموع من عيني على نهايتي وحياتي التعيسة مستسلمة لما كتبه لي القدر من معاناة.. كنت بحاجة بأن أمسك بقلادتي التي تشعرني بأني بخير وأنهم جانبي، ولكنها ضاعت وضاع عمري معها.. أحتاج شخصًا يأتي وينقذني من الضياع، أحتاج شخصًا أتكئ عليه ويطمئنني أنني بخير ولستُ

وحدي، ولكني لا أملك أحدًا.. كلهم ذهبوا وتركوني لأتلقى عقابي..

لا ملجأ لي سوى أن أعود إلى ذلك الكوخ، فاقدة الأمل في العودة إلى منزلي ولحياتي التي اعتدتُ عليها، ففي كلتا الحاتين سينتهي أمري..

عدتُ لأجد جثة ذلك الرجل مختفية من على الأرض! طرقتُ باب المنزل وأنا خائفة.. أتساءل أين ذهبَت جثة الرجل؟!

يفتح لي ذلك المجرم:

- يا إلهي! لا أصدق أنكِ عالقة معي هنا، اعتقدتُ أنكِ وجدتِ طريقًا ما للخروج وذهبتِ.

في طريقة كلامه نوعٌ من السخرية، سألته متجاهلة لسخريته:

- أين ذهبَت جثة الرجل المقتول؟

- لقد دفنتُه وأخفيت جثته حتى لا تُتّهم بقتله إن جاء أحد لنجدتنا من هذا المكان المقطوع عن العالم، وليدعُو لي الرجل بأني رحمته من أن يؤكل جسده من الكلاب المسعورة والضباع.

جلستُ على الأريكة مستغربة لطريقة كلامه الهادئة والباردة هذه! مشغولة البال أبحث عن طريقة تخرجني من هذا المكان الغريب وأتخلّص منه، لعلّ الهدوء والتركيز يوصلني لحل.

وجدت الرجل متجهًا نحوي، يحمل قطعة قماش ويقترب مني وهو صامت ينظر لي نظرة مخيفة.

ماذا يريد؟! لماذا يقترب مني بشكل مخيف هكذا؟!

يركع عند قدمي ويبدأ الخوف والقلق ينتابني! ماذا سيفعل؟ ماذا يريد مني؟!

***

الفصل الخامس
(أهذه نهايتي؟.. معك؟)

- إذا سمحتِ، هلّا أبعدتِ قدميك قليلًا؛ كي أمسح دمي الذي بعثرته بحذائك هذا؟ لا داعي لأن تخافي، لن أعتدِي عليكِ؛ فأنا رجل متزوج وأحب زوجتي.

آخذ شهيقًا بعد أن تعب قلبي من الخوف:

- أوفف يا إلهي، لقد أخافني جدًا.

ليخطر على بالي شيء لا أعلم لمَ لَمْ أفكر فيه من قبل:

- هاتفِي! أين هاتفي؟!

يعود لي الأمل من جديد:

- نعم أين هاتفي، يمكنني أن أتصل بأحد ليخلصنا من هنا، يا إلهي كيف لم أفكر بهذا من قبل؟!

بدأت أبحث عنه في أرجاء المنزل، صعدتُ لأتفقد السرير، تحت الوسائد، خلف الأبواب، داخل الأدراج، يا إلهي أين هو؟!

ترجع ذاكرتي وأتذكر أنه كان بجانبي في السيارة وهجوم الرجال عليّ لأشعر بألم الضربة التي تلقيتها على رأسي مجددًا، أمسك بها أشعر بدوار، ليمسك بي الرجل خشية أن أقع ويجلسني على الأريكة:

- هل أنتِ بخير؟!

- نعم، نعم أنا بخير، هل معكَ هاتف؟ سأتصل بأحدهم قد يستطيع إخراجنا من هنا وسأعطيك ثمن المكالمة، أرجوك.

أخرج هاتفة من جيبة وهو متردد:

- نعم.. آه تفضلي ها هو، ولكن بالتأكيد لن تجدي شبكة هنا؛ لأنه مكا...

ألتقط منه الهاتف مقاطعة لكلامه أتصل ب(سما)، ها هو يرن الهاتف وأتشوّق لأن أسمع صوت أحد يرد...

- هيا هيااا، أجيبي يا (سما) أرجوك.

..

- ألو من معي؟

قلت لها والأمل يغمرني:

- ألو ألو (سما)، أنا (إمي) يج...

تقاطعني (سما):

- (إمي)! يا إلهي كيف حالك؟! أين أنتِ؟ لمَ أنتِ مختفية كل هذه الفترة؟! ولمَ لا تجيبي على الهاتف؟ لقد حاولت الاتصال بكِ كثيرًا، ولم...

- سأخبرك كل شيء لاحقًا، ولكن...

تكمل (سما) ثرثرتها:

- هل هربتِ مع ذلك الرجل الوسيم؟ أم هربت من عناء العمل هاهاها، إن مدير القسم الدكتور (طارق) يسأل عنك كلما رأى وجهي، إنه قلق عليك بشكل غير طبيعي، لمَ أنتِ غائبة كل هذه الفترة؟ لقد حاول كثيرًا الاتصال بكِ ولكنك لم تجيبي؟ هل...

أصرخ في وجهها:

- اصمتي!.. اصمتي قليلًا يا (سما) واسمعيني، أنا في مأزق وتقولين هربت مع رجل وسيم! هل أنت مجنونة! الآن أنا لا أعلم أين أنا، أخبري الشرطة أنني مفقودة، أو أخبري أي أحد ليبحثوا عني؛ فأنا محبوسة في مكان غريب مع مجرم مخيف، وأُريد الخروج من هنا بأية طريقة وبسرعه أرجوك... ألو.. ألو(سما).

أنظر إلى الهاتف بغضب، لمَ لا تجيب؟!:

- ماذا؟! لقد نفذ رصيد الهاتف!

أُلقي الهاتف بقوة على الأرض بيَأس، ينحني ليلتقطه:

- أووه! هدّئي من روعك إنه هاتفي.

أهدأُ وأستوعب ما قلتُ عنه:

- آسفة حقًا، لم أقصد أن أهينك، ولكن كانت أعصابي...

يقاطعني قائلًا وهو يبتسم بانكسار:

- لا بأس، إنه ليس ذنبك بل ذنب الثرثَارَة (سما)، باستطاعتك النوم بالأعلى على السرير، أنا سأكتفي بنوم هنا على الأريكة إلى أن نجد طريقة للخروج من هنا.

قلت له وأنا قلقة من أن يستغل إرهاقي:

- لا لستُ متعبة، لا أشعر بنعاس أصلًا، ولكن سأصعد لأستريح فقط.

- لا بأس، اصعدي، تصبحين على خير.

صعدتُ وأحكمت إغلاق باب الغرفة لأضع جسمي المنهك على السرير، رأسي يكاد ينفجر من كثرة التفكير.. لا أشعر بأن ذلك الرجل مجرم حقًا، ولكن.. (لا يجب أن آمِن للغرباء مهما أظهروا طيبتهم).. كلمة خرجت من قلب أمي قبل شفتيها خوفًا عليّ.

- أهه! كم اشتقت لكِ.

غلبني النعاس وغرقتُ في النوم..

ليأتي صباح جديد شديد البرودة، قمتُ أبحث عن حمام أغسلُ به وجهي، فتحت الصنبور ولم أجد قطرة ماء واحدة، وكأن الماء جفّ من صنابيره!

نزلتُ أسأل ذلك الرجل عن ماء، أين هو؟! لم أجده.. أبحث عنه كالمجنونة خائفة أن يكون قد خرج من المنزل وتركني، أقول بغضب الذي سببه قلقي:

- هذا الأناني الحقير! ذهب وتركني وحدي في هذا المكان المخيف.

بعد لحظات أجد باب المنزل يُفتح بقدم أحدهم وبقوة.. ينعكس ظل رجل ضخم على الأرض بشكل مخيف كأفلام الرعب.. تنتشر قطرات الماء من قدميه..

فإذ بذلك الرجل الذي كدتُ أن أموت من الرعب الذي سبّبه لي، أرى رياحًا قوية يصحبها الثلج من خلفه.. كان يحمل الحطب، والثلج الأبيض يملأ شعره ووجهه، وجسده يرتعش من شدة البرد، دخل متوجهاً للمدفأة يشعلها؛ ليدفِئ البيت قليلًا.

توجهتُ له بغضب:

- أنت.. أين كنت؟ هل كنتَ تحاول الهرب وتركي هنا أيها الأناني غريب الأطوار أنت؟!

- ...

لم يجِبني، ولم يبدي أي ردة فعل وكأني لا أتحدث إليه، اقتربتُ إليه أكرر نفس السؤال، ليهبّ واقفًا بغضب:

- هل ترين شبحي واقف أمامك وهربتُ أنا؟! أم أنني ألعب الشطرنج؟ أم تريني أحمل حطبًا؟ إن لم تثقِي بي فاذهبي وجِدِي طريقًا بنفسك للخروج

واتركيني في حالي، أنا لستُ مضطرا بأن أبرر لكِ كل شيء أفعله، فلتظني بي كما تشائين وافعلي ما يحلو لكِ، وإن أردتِ مناداتي فاسمي (فادي)، أنا بشر وعالق هنا مثلي مثلك.

يذهب من أمامي بغضب وأنا صامتة متعجبة من طريقة كلامه لي، أنا لم أعتد أن يتحدث أحد معي بتلك الطريقة الفظة.. شعرت بسوء، لماذا تحدث معي هكذا؟! هل كانت طريقة سؤالي غير لائقة؟! أم سؤالي كان غبيًا؟! أعتقد أن سؤالي كان غبيًا.

بعد طول تفكير قررتُ بأن أذهب وأتأسف له عن أسلوبي في طريقة كلامي من البداية، توجهتُ نحوه.. كان يتأمل الفناء من النافذة مصدّرًا ظهره اتجاهي، ولكن ما لم يكن يعلمه أن زجاج النافذة يعكس تعابير وجهه وضيّ عينه التي تدمع..

- أستاذ (فادي)، هل أنت تبكي؟!

يدير وجهه للجهة الأخرى، يمسح بكف يده دموعه، يقول باسترجال:

- لا بالطبع، من قال لكِ أني أبكي؟ هل أنا طفل؟!

- ومن قال لك أن البكاء للأطفال؟! كل منّا يحتاج أن يخرج ما في قلبه وما يحزنه، البكاء لم يكن للضعفاء أبدًا ولا للأطفال فقط.. وعلى كل حال أردتُ أن أتأسف لك، لم أتعمّد أن أسألك بتلك الطريقة الفظة، ولكن كنتُ خائفة عندما بحثتُ عنك ولم أجدك في المنزل؛ فقد ظننت بأنك قد...

يقاطعني:

- لا.. بل أنا من يجب عليه أن يعتذر عن طريقة كلامه، كنت أشعر باستياء من حالنا.

يغيّر تعابير وجهه الجادة مبتسمًا:

- على أية حال، هل أنتِ جائعة؟ سأحضّر الفطور كاعتذار عما بدر مني.

- حسنًا، إذا وجدتَ في هذا البيت المهجور أساسًا.

اتجه (فادي) إلى المطبخ يبحث عن شيء نأكله، وصعدت أنا إلى الغرفة أبحث عن أي شيء أرتديه غير ملابسي هذه، فبعد كل ما حدث لم تعد صالحة للارتداء ورائحتها أصبحت كريهة.. فتحتُ الخزانة لأجد الملابس في حالة مزرية وكأن فأرًا جائعًا تغذّى عليهم، لم أجد شيئًا مناسبًا للّبس سوى قميص كبير بأكمام مأكولة، ما باليد حيلة، دخلت الحمام أتفقد صنابير الماء لعلّها عادت لمجاريها.

لقد عادت الماء، أخيرًا سأستحم وأغسل ملابسي المتسخة.

..

بعدما انتهيت نزلت متجهة لطاولة الطعام، كان (فادي) يضع أطباق الطعام عليها، نظر لي ثم أدار وجهه بسرعة وكأنه رأى شبحًا!

استغربت من ردة فعلة:

- أعلم أن القميص بشع، لا تبالغ في ردة فعلك.

قال لي وهو منزعج وما زال ينظر في الجهة الأخرى:

- لا لم أقصد.. ولكن ألم تجدي شيئًا أكثر احتشامًا من هذا؟!.. أقصد يعني سقاكِ وذراعاكِ.. يعني.. القميص قصير جدًا والجو بارد، وقد تصابي بالحمى.

أقول له وأنا لازلت مستغربة:

- لا لم أجد غيره في الخزانة، وملابسي لم تجف بعد، أنا آسفة إن كنت أزعجتكَ بمظهري، ولكن...

ينزع سترته التي كان يرتديها على القميص، ويمدها لي وهو لا يزال ينظر في الجهة الأخرى:

- خذي البسي هذه، فقد تغطّي جزءًا منكِ وتحميكِ من البرد إلى أن تجف ملابسك.

أخذتها منه لأرتديها.. أشعرَتني هذه الحركة بالاطمئنان تجاهه.. ولكن! كانت بسترته رائحة غريبة مألوفة لأنفي.. غريبة! لا بد أنه يستخدم عطرًا معروفًا.

تجاهلتُ الرائحة وجلستُ على المائدة الخشبية التي يظهر عليها شقوق الزمن، من الواضح أنها قديمة جدًا، نظرتُ في صحني لأجد فتات خبز مقدّد وحليب لا أعرف حالته، لم أتكلم وبدأت بالأكل، عندما تذوقتُ الطعام كانت ردت فعلي معاكسة للحقيقة تمامًا:

- أمم اختراعك شهيٌّ، محاولة جيدة لتقليد طبق كورنفليكس.

الفصل السادس
(لم أكن أعلم أن هناك أحد يشاركني نفس المُعاناة)

- أيتها الطبيبة (إمي)، لمَ أصبحتِ طبيبة طوارئ؟ فهي صعبة ولا تليق بالنساء!
- كيف عرفتَ اسمي؟! أنا لم أقُله لك؟!

يبتسم بغموض:

- _أنا جاسوس وأعرفك، كنت أراقبكِ منذ فترة.
- ...
- حسنا أمزح، تعبيرات وجهك الخائفة فظيعة، لقد رأيتُ اسمك في بطاقة هويتك التي وقعَت من بنطالك وأنا أحملك.
- تبًا لك!.. كيف تستمتع بإخافة البشر هكذا.
- هيا احكي لي سبب دخولك هذا القسم من بين جميع الأقسام.

ابتسمتُ بحزن وقلت له:

- إنها حكاية طويلة ولن ترغب في سماعها.
- لا يوجد من يعطّلنا هنا فلا مفر، يجب أن تحكي بما أنكِ مدينه لي باعتذار .
- كما تشاء.

آخذ شهيقًا وزفيرًا استعدادًا لبدء حكايتي المرهِقة:

- عندما كنت في التاسعة عشر من عمري كنا في أجازة الصيف، عندها

قرر أبي بأن يأخذني أنا وأمي في رحلة إلى الشاطئ، ركبنا سيارتنا وكنا على أتم استعداد، ونحن في الطريق قال أبي وهو يبتسم لأمي ابتسامة ورائها سر:

- كنا نريد أنا وأمك بالتحدث معكِ في موضوع ما يا (إمي).

منشغلة في هاتفي:

- ما هو يا أبي هذا الموضوع؟

- ما رأيكِ بأن يكون لكِ أخ صغير تلع....

سكت أبي فجأة وصرخت أمي.. يضغط أبي مكابح السيارة يحاول إيقافها، أرفع عيني من على الهاتف؛ فأجد مقطورة حديدية ضخمة تقترب منا بسرعة هائلة، أشعر بقوة الفرامل التي تضرب وجهي بالكرسي الأمامي وتقلب السيارة رأسًا على عقب.

لم أسمع ولم أرى شيئًا في هذه اللحظة، وآخر شيء سمعته أذني كانت صرخة أمي وصوت احتكاك العجلات في الأرض، وبعدها صوت الاصطدام وصفير مؤلم في رأسي.

بعد فترة لا أعلم مقدارها فتحت عيني لأجد نفسي خارج السيارة، وأبي وأمي ملقيان أمامي مغميًا عليهما والجروح تملأ جسدهما، ينزفان الدم بصورة مرعبة لا يمكنني أن أنساها، كنت أصرخ وأنادي عليهما ولكنهما لم يستجيبا لنواحي وصُراخي.. استنجدتُ بأعلى صوت ليسمعني أحد وينقذهما، ولكن..

كان الطريق فارغًا ولم يستجب أحد، ظلّت دموعي تغرقهما وأنا أحاول إيقاف نزيفهما بيدي الملطخة بدمائهما.. كنت أشعر أني أحلم، يستحيل أن تكون هذه نهايتهما!

حتى رأتنا سيارة مسرعة على الطريق ووقفت لتنقلنا إلى المشفى بسرعة، ولكن..

كنت أعلم أنه فات الأوان، فقد شعرت بأرواحهما وهيا تودعني، ليخرج الطبيب ويؤكد لي فراقهما:

- نتأسف حقًا.. فقد مات الجنين وسبّب للأم نزيفًا حادًا، مما أدى إلى وفاتها أيضًا، أما الأب فقد أصيب إصابة بالغه بالدماغ لقيَ بها حتفه.

جفّت عروقهما من الدماء! فارقا الحياة! تركاني! حتى أخي الذي لم ترَه عيني بعد تركني وحدي أعاني وأصرخ بصمت..

لازمتُ المشفى لمدة أسبوع تقريبًا بسبب إصابتي القوية في رأسي، أخبرني الدكتور أن هذه الكدمة قد تؤثر على المخ، وفي هذه الفترة كنت في حالة اكتئاب وصدمة شديدة، ذهبا في وقت احتجتهم فيه أكثر من أي وقت مضى، أصبحتُ وحيدة بلا أحد يسأل عني أو يوقظني مما أنا فيه، حتى جاء ذلك اليوم الذي وقفتُ به لأقاوم الوحدة واليائس اللذين سيطرا عليّ، فبعد هذه الحادثة قررتُ أن أغيّر تخصصي من طب أسنان إلى مسعفة في قسم الطوارئ، حتى لو عاد بي الزمن للوراء أستطيع إنقاذهما من الموت، أو على الأقل أنقذ أشخاصًا من الحزن على فقدان أشخاص هم عبارة عن حياتهم، فهو شعور أصعب من الموت.

أصبحَت كل حالة تأتيني في قسم الطوارئ والدم يملؤها تذكّرني بكابوس والديّ وهما غارقين في دمائهما، وكلما اشتقتُ لهما أُمسِك بالقلادة التي تحمل خاتم زواجيهما، ولكنها ضاعت، ولم أستطع العثور عليها، بحثتُ عنها في كل زاوية من حياتي ولم أجدها، أشعر بمرض الوحدة والشوق لهما من جديد.

وها أنا ذا نجّاني الله من الموت حتى أكون سببًا في أن أنجي حياة الكثير، ولازلت لا أستطيع إنقاذ روحي من عذاب القدر..

...

أخرج زفيرًا يائسًا من رئتيّ المرهقتين، أنظر له بعد أن أنهيت قصتي البائسة، لأجد تعابير وجهه متأثرة بحديثي كثيرًا، وجهتُ له سؤالًا أقطعُ حزن الحوار

وأعيد الابتسامة التي كانت على وجهه:

- وأنت يا (فادي)، قل لي ماذا تعمل؟

رد عليّ متلألئًا:

- أنا.. أنا أعمل سائق.

- وهل تحب عملك؟

يقوم بحمل الأطباق إلى المطبخ:

- في الحقيقة أنا كنت أدرسُ طب الأسنان أيضًا، ولكن لم تكن الظروف على ما يرام فاضطررت لتركها.

ذهبت وراءه مقاطعة لكلامه:

- حقًا! أكنت تدرس الطب؟! في أي جامعة كنت؟

- كنت في جامعه (الطب السامي) قرب المدينة الكبرى.

- يا إلهي! إنها نفس الجامعة التي درستُ بها، كيف لم أرَكَ هناك؟!

قال مبتسمًا وهو يغسل الأطباق مخفيًا شيئًا في عينه:

- القدر.

كنت خلفه أكمل حديثي وهو يضع الأطباق في حوض المغسلة.

- وال...

يلتفت ليقول شيئًا فيجدني أمامه مباشرةً.. تسرح عينه في عينِي لثوانٍ.. أبتعد بسرعة، ليبعد هو نظره إلى الجهة الأخرى مرتبكًا، أقول مشتتة رهبة الموقف:

- سأخرج قليلًا؛ لأستنشق بعض الهواء الطلق على البحر.

ذهبت متوجهه للباب، وقبل أن أفتحه قال لي وهو ما زال في ارتباكه:

- انتبهِي؛ فالجو شديد البرودة بالخارج.

- لا مشكلة، سأتأقلم.

خرجتُ وأغلقتُ الباب خلفي، أخلع حذائي حتى لا يدخل به رمل الشاطئ، أتوجه للبحر وأستنشق الهواء النقي لأريح جسدي ورئتيّ، جلستُ على صخرة ضخمة أمام البحر، أفكّر فيما أنا فيه، أعاتب نفسي:

كنتِ تتذمرين من عملك ومن نظام حياتك الروتيني؛ فعاقبكِ الله بالابتعاد عنهم، كما كنتِ تتذمرين من أجمل نعمتين في حياتك ليعاقبك الله أيضًا بأخذهما ولتشعري كم كانا مهمَّين، ولتعلمي كم هو مهم الرضا بما كُتب لك.

وأنا مندمجة في الحديث مع نفسي، هبّ نسيم بارد، فأشعر برعشة البرد، لأجد غطاءً دافئًا يُوضع على كتفي!.. ألتفت، لأجد (فادي) من وضعه جالس جواري:

- ألم أقُل لكِ إن الجو بارد، ستصابين ببرد الآن.

- شكرًا، كنت بحاجة لغطاء فعلًا، لم أتوقع أن الجو بهذه البرودة!

ينظر لي نظرة دافئة:

- كنت أعلم أنكِ شعرتِ بالبرد.

يحضُر الصمت للحظات..

كانت نظرته تحمل كلمات لعينِي لا أفهمها..

أسمع دقات قلب.. كأنها دقات قلبي!.. أتكلم بسرعة مخفِيَةً ذلك الصوت وأبعد الصمت:

- قل لي يا (فادي)، لمَ تركتَ دراسة الطب؟! لم تخبرني بقية القصة!

ينظر للبحر:

- تركتها حتى أعمل وأوفر المال لإيجار منزلي ولقمة عيشي.

- لماذا؟ أين والداك؟!

- هه، والداي مطلقان منذ أن كنت في الثانية عشر من عمري، ذهب أبي من المنزل وأخذ شقيقي الأصغر، وتركني أنا مع أمي بحِجّة أني لستُ ابنه الشرعي، وأن أمي خائنة، حتى بعد أن أثبتَت التحاليل أني من صلبه، تركنا لأشهر كثيرة، فاضطرَت أمي للعمل وجَنْي المال بعد أن فقدَت الأمل بعودة أبي، كانت تتأخر كثيرًا في عملها وأظلّ وحيدًا في المنزل لفترات طويلة بدون اهتمام من أحد، وفي يوم جلستُ أنتظرها لوقتٍ متأخر لتخطر لي فكرة جنونية، فقد قررتُ أن أهرب من المنزل بدافع طفولي لأرى مقدار حب والداي واهتمامهما بي، وهل سيلاحظان اختفائي أم لا، لم أبتعد كثيرًا عن المنزل، كنت أختبئ بجواره وأراقب الوضع من بعيد، مر يوم.. ويومان.. كنت أنام في مكاني حتى لا تفشل خطتي، ولكنِ بعد أن شعرت بقرصِ الجوع والإرهاق ورعشة البرد، مللت من كثرة الانتظار وقررتُ العودة للمنزل، فقد اشتقتُ لأمي ولغرفتي، ومن الواضح أنها خطّة فاشلة.. وقبل أن أخرج من مكاني شعرتُ بأمي فاختبأت وأنا أراقبها مشتاقًا لها، أريد أن أرتمي في أحضانها، ولكن..

وجدتُها تخرج من سيارة غريبة تملأها الأغاني الصاخبة والدخان، وهي تترنح وتظهر على وجهها الضحكة..

كانت ضحكتها عالية، وكأنها لم تشعر بغيابي!

شعرت حينها بألم لا أستطيع وصفه.. شعرتُ بوخزٍ في قلبي وبدأَت الدموع تنهمر مني، شعرت بأنني وحيد ولا أحد يريدني..

عِشتُ في هذه الصدمة لأيام على أرصفة الطريق، عرفتُ أن هذا واقعي ومصيري، أن لا يحبني أحد، وأني كنت عالة على والديّ، فقد أرحتُهما برحيلي..

ابتعدتُ عن المنزل لأتوه بين الشوارع، لأبدو كمتشرد وُلدتُ على

الطريق، أعيش على بقايا الناس وعطفهم..

وذات يوم كنت جالسًا على أحد أرصفة الطريق ألعب ببعض الحجارة، فأسمع صوت ضحكة طفل لفتَت نظري، كان ولداً في مثل عمري تقريبًا، يمسك بيده اليمنى أبيه وباليسرى أمه والابتسامة تملأ وجهه..

شعرت بنفس ذلك الوخز في قلبي، كانت الدموع تطفو على جفني، أتمنّى لو كنتُ مكانَه للحظة وأشعر بنفس سعادته..

وأنا على هذا الحال وجدتُ رجلًا مرّ من جانبي يبحث عن شيء، وكأنه يبحث عن شيء مهم ضاع منه..

رجع في خطاه إليّ، يتفحّص ملامح وجهي ويمسح بيده غبار الطرقات من على وجهي، ليتعرف علي.. كان يشبه أحدًا ما!.. نعم كأني اعرفه!

إنه خالي (ماجد)!

يحتضنني بقوة والدموع تذرف من عينه، يسألني بعتاب:

- أين كنت؟! أين كنت يا (فادي)؟! لقد ظننا أنكَ خُطفْتَ أو أصابك مكروه، أرعبتَني عليكَ وأرعَبْتَ أمك، اتصلَت بي وهي منهارة تخبرني أنك لستَ بالمنزل، وأبلغنا الشرطة عن اختفائك، إنها قلقة عليكَ كثيرًا، هيا تعال معي لنُطَمئِن قلبها وأنّه لم يمسك سوء، إنها معي بالسيارة تعالَ، لن تصدق أنك لازِلْتَ على قيد الحياة.

أخذني من يدي وأنا أشعر أني أحلم، س.. سأرَى أمي حقًا! وأخيرًا! فقد اشتاق قلبي لضمتها.. واشتاق شَعرِي للمستها.. أمي اشتاقَ قلبي لحنانها.. اشتقتُ لصوتكِ، اشتقتُ لكلّ ما بكِ أمي..

ها هيَ لقد رأَتها عيني داخل السيارة، قلقةٌ عليّ والدموع لا تفارق خدّها.. ها هو النبض يعود لقلبي؛ ليحيا من جديد.. أمي، أنا آسف لم أقصد أن تبكي.

يلوّح لها خالي بسعادة من الجهة المقابلة للطريق، يقول لها بسعادة

وبصوت عالٍ:

- (ماجدة)، (ماجدة) لقد وجدتُ (فادي)!

تلتَفِت أمي لتستوعب ما يقوله خالي، وتقع عينها عليّ..

فأجد قلبها يقوم مبتهجًا، تخرج من السيارة، ووجهُها يظهر عليه الذهول، وعينُها مشتاقة لي تدمع فرحًا.. تركض نحوي بهلع، فقد اشتاق صدرها لضمتي، وأنا أتطوق لأن أرتمي بأحضانها.

ماذا؟! مهلًا.

يصرخ خالي قائلًا:

- (ماجدة)، انتظرِي!.. توقفي!

لأجد سيارة مسرعة تتجه نحو أمي!

أُفلتُ يدي من قبضة خالي أتجهُ نحوها وأنا في حالة من الذعر.. يجب أن أنقذ أمي وأوقف السيارة..

تتوقف أمي مبتسمة أمام السيارة وكأنها تستسلم! تنظر لي نظرة تودعني بها قائلة:

- أحبك يا ولدي ولم أنساكَ عمري، سامحني.

تحمل السيارة أمي على زجاجها الأمامي وترميها أرضًا! وكأنها صور تعرض أمامي ببطء..

أركع على ركبتي لتترك الدمعة جفني وتركع معي، تنطق شفتاي من صدمتها:

- أمي!

..

لم تنجو أمي من الحادث، وقال لنا الطبيب أنها أُصيبَت إصابة بليغة في عمودها الفقري؛ مما نتج إلى دخولها في غيبوبة لا نعلم مدتها، سيتركونها في المشفى تحت رعاية الأطباء لمدة لن تزيد عن شهرين بمبلغ وقدرة، بعدها إن لم تنجو من الغيبوبة سنفصل عنها الأجهزة ونحرّرها من جسدها.. إذا أردت ذلك.

أخذني خالي بين ذراعيه ودموعه تغرقني، يشعر بالأسف لما جرَى لي، كان يشعر بكسري وصدمتي وفراق أخته.

لم أكن أُبدي أية ردة فعل.. فقط واقف والصمت يعم أجزاء عقلي..

بعد تلك الحادثة شعرت أني لا أرغب في هذه الحياة حقاً.. شعرت فعلًا بالوحدة الحقيقية، مع أن خالي لم يتركني في هذه الفترة أبدًا، وكان يحاول جاهدًا أن يوفّر لي الحنان والاهتمام الذي فقدته..

وفي يوم عيد ميلادي بعد أن بلغت ثمانية عشر عامًا قال لي خالي (ماجد) كلامًا لن أنساه أبدًا، قال:

- يا بني، سأقول لك شيئًا لعله ينفعك، مهما كانت ظروفك قاسية عليك، ومهما كنت مستاءً من حياتك وقدرك، فاعلم أنه لم يُخلق أحد لأحد، وأن جميع الناس فانية، ويوم الحساب ستكون أنت وحدك وكلهم سيقولون نفسي نفسي، حتى أقرب الناس إليك، ومهما كان ماضيك يجب أن تمحيه قبل أن يؤذيك، ففي يوم ما ستصبح رجلًا مسؤولًا من عائلة وأطفال، كن قدوة تحب أن يقتاد بها أولادك، كن قويًا ولا تجعل الحياة تهزمك، كن قادرًا على رعايتهم ولا تتخلى عنهم فتُعيد ما مررتَ به في الماضي معهم.. قم.. قم معي سأوصلك لبداية الطريق، ولتبدأ حياتك المهنية، فقد ظهَر شاربك وأصبحتَ رجلاً.

قدم لي سيارة الأجرة التي كان يعمل عليها, وقال:

- الآن يمكنك الاعتماد على نفسك يا بني، فأمامك قطار الحياة يمضي، لا تفوّته وعِش حياتك، لا تجعله يفوتك وتظل واقفًا في

مكانك تنتظر القطار الذي يليه طوال عمرك، فتذكرتُه غالية الثمن يا ولدي، وقد دفعاها والداك عنك بأفعالهم.. إن أردت شيئًا يا (فادي) لا تتردد بالمجيء إلى هنا.

قبلتُ يديه لعجزي عن شكره:

- لن أنسى معروفك أبدًا.

ذهبتُ مودعًا له، لأبدأ حياتي بعرق جبيني وأعتمد على ذاتي، كنت أعمل على هذه السيارة ليلًا ونهارًا بدون أن أستريح، وإن غلب عليّ النعاس كنت أغفو على الكرسي الخلفي بالسيارة، حتى جنَيت المال الكافي لأجر غرفة أنام بها.

مرت سنه تقريبًا على هذا الحال، ذهبتُ لأزور خالي (ماجد) أحمل له الفواكه والزهور؛ فقد اشتقت له ولأحاديثه.

أوقفتُ سيارتي أمام منزلة لأرى رجلًا غريبًا يحمل حقيبة إسعافات خرج من منزل خالي، يوحِي بأنه طبيب.

خرجتُ من السيارة مسرعًا أتجه إليه، أُلقي عليه التحية:

- ماذا يحدث لخالي؟!

يصافحني:

- مرحبًا، أنا الطبيب المسؤول عن حالة السيد (ماجد)، للأسف لقد ساءت حالته واشتد مرضه، يجب أن تعتني به؛ فقد تكون هذه ساعاته الأخيرة.

- ماذا؟!

أذهب راكضًا لخالي والصدمة ترمي بي بين ذراعيه، والدمع في جفني تسقط على صدره.. كان على فراش الموت والخدم حوله يبكون، لم تصدّق عيني ما تراه، لأجده يمسك بيدي ويقول:

- لا تبكي أنتَ رجل، تماسَك نفسك يا هذا.

لأقول له وأنا لا أستطيع تمالك دموعي:

- لماذا؟! لماذا أنتَ أيضًا تريد أن تتركني يا خالي؟

يرد عليّ مبتسمًا:

- كنت أعلم أنك ستعود لتطمئِنّ عليّ.. ولكن قبل أن أذفر أنفاسي الأخيرة أريد أن أقول لك.. أن الله سلب مني نعمة الإنجاب وكافأني بابنٍ صالح مثلك يا (فادي)، فالقدر عندما يسلِبُ منا أشياء نحبّها تأكد أنه سيعوّضك بأفضل منها، أوصيك بأن تهتم بحياتك وبنفسك، أريدك أن تذهب لصديقي الذي دوّنت لك عنوانه بالورقة وتعطِه هذه الرسالة، وإذ احتَجتَ لأي مساعدة فهو بمثابة أخ لي، لا تعصيه ولا تتعبه.

هذه كانت آخر كلماته.. فقد خرجت روحه بأمان ونزل الدمع من جفن رجل أخذت منه الحياة كل من أحبهم.

لم أتركه حتى أتَممتُ له عزاء يليق بشخصه الكريم والطيب.. فبعد كل ما حدث كنت مهملًا دراستي، أو بمعنى آخر قطعتها، قررتُ أني لابد أن أكمل دراستي وأصبح كجميع الرجال المتعلمة، كما قال خالي (ماجد) رحمة الله، أكملت الثانوية وأنا في الواحد والعشرين من عمري، كنت مجتهدًا، فقد حصلتُ على تقدير عالٍ، كانت أمامي خيارات لمجالات كثيرة ومنها كلية الطب، فاستخرتُ ربي ودخلتها وأنا في قمة السعادة بما قدمته لنفسي..

فقط.. وها أنا ذا أمامك بنهاية تعيسة مع طبيبة جميلة.

***

الفصل السابع
(حياتي الآن!)

نظرت لها لأجد الدموع على خديها:

- يا إلهي! (إمي) لمَ تبكين الآن؟! أنا لا أحمل المناديل.

يقف بسرعة ليبحث في جيوبه ولا يجد شيئًا؛ فيقول مستسلمًا ليضحكني:

- آه حسنًا، فلتمسحي في سترتي، أسمح لك.

- إن قصتك جميلة ومؤثرة حقًا، إني معجبة بها كثيرًا، لقد عانيتَ مثلي، لكنك مختلف عني في شيء واحد، وهو أنك استطعتَ التغلب على قدرك وحزنك، أما أنا فلم أستطع.

قلت مازحًا لأغير حالتها:

- ليتني لم أحكِها، لو لم أحكِها لما بكيتِ ولما تأثرتِ هكذا.

- هيا فلنعد للداخل، لقد حل الليل وأصبح الجو أكثر برودة.

يقول لي وهو يسبقني واقفًا، يمد يديه يساعدني على الوقوف من على الصخرة:

- هيا فقد شعرت بالجوع من كثرة الحديث.

دخلنا بسرعة إلى المنزل والرياح تهبّ عكسنا؛ لنتسابق أنا و(فادي) للكوخ، أغلقنا الباب وشعرت حينها بدفء وهدوء وراحة بال غريبة! كيف؟! كيف أشعر بهذا وأنا في مكان غريب مع شخص غريب؟! كيف لم أعد خائفة أو قلقة؟!

يقول لي (فادي) مشتتا تفكيري:

- لابد أنكِ جائعة من كثرة سماعك لثرثرتي.

أجبته بإماء الموافقة.

بعد أن استدار، نظرت له.. متعجبة لما أنا فيه، خائفة لما سيحدث وما يخفي لي القدر..

ذهبتُ أبحث عن ما يمكننا أكله، كنت أشعر بأن عينها بها الكثير من التساؤلات وعقلها في حيرة من أمره، نعم كنت أشعر بها وكنت قلقًا من كل هذا..

لأجدها تتفحص المنزل وتتوجه إلى صورة معلقه على الجدار قرب المدفئة، ليزيد قلقي شيئًا فشيئًا من أن تسألني عمن في الصورة..

اقتربتُ منها لتتضح لي الصورة، فأرى رجلًا يحتضن صبيًا راشدًا، أتعجب، أنه يشبه (فادي) كثيرًا، غريبة!

تبدأ شفتاها تتحرك لتسألني وعقلي متشتتٌ لا أعلم ماذا أجيبها؟ فتقول:

- (فادي)، هل هناك شيء نقضِي به وقتنا كتلفاز أو لعبة أو أي شيء؟ يستحيل أن نبقى هكذا حتى نموت، سأموت مللًا قبل أن أموت.

لتعود نبضات قلبي لوضعها الطبيعي، وأحمد الله في خاطري أنها لم تسألني عن الصورة.

- لا أعلم، ولكن سأبحث عن تلفاز في مخزن المنزل، أذكر أني رأيته هناك.

- غريب! من الواضح أنك تعلم الكثير عن هذا المنزل!

أرد عليها مخفيًا قلقي:

- نعم، تجولتُ فيه قليلًا، هذا كل شيء.

جاء يمد لي أطباق الطعام، آخذُها منه وهو مخفيًا شيء في عينه:

- سأذهب أنا إلى القبو لأحضر التلفاز وأحاول تشغيله.

أضع الأطباق جانبًا:

- انتظر سآتي معك، بالتأكيد ستحتاج إلى إضاءة بالأسفل.

آخذ الشمعة التي على المائدة، ويُخرج الكبريت من جيبة، يقترب مني ليشعلها، يحمي الشمعة بيده حتى لا تنطفئ.. أرتبكُ قليلًا لقربه مني ولا تزال رائحة عطره المألوفة في أنفي:

- هيا الآن لنذهب..

كان الليل معتمًا بالخارج والبرد قارصًا، تبعته خائفة من الظلام، أتفحص بعيني ما حولي، حتى وصلنا إلى باب القبو؛ فيفتح (فادي) الباب بقوة.

باب قديم من الواضح أنه مغلق منذ فترة طويلة جدًا، دخلنا إلى الداخل، كان شديد الظلام:

- تعالي يا (إمي)، أنيري لي الطريق هنا؛ فأنا لا أرى شيئًا.

- (فادي)، لقد غيرتُ رأيي، لا أريد تلفازًا ولا أريد شيئًا، فهذا المكان مرعب، دعنا نعود.

يمسك يدي يسحبها له:

- هيا أيتها الجبانة، لا تخافي أنا معك ولن يصيبكِ مكروه.

لم أستوعب ما قال لوهلة! أسرح في أفكاري، كيف يخاطبني هكذا وكأنه يعرفني من سنين!.

- ها هو التلفاز، تعالي لقد وجدته.

يتجه نحوه وينحني يبعد ما عليه من غبار، يحمله..

وفجأة! تهب رياح هائجة تغلق باب القبو بقوة وتنطفئ الشمعة؛ ليقف شَعرَ جسدي رعبًا، وأصرخ بصوت عالٍ، أحتمي به خائفة..

- هههه، كم أنتِ جبانة يا (إمي)! كيف لطبِيبَة طوارئ أن تخاف هكذا؟!

يضع التلفاز على الأرض ويسحبني من خلفه، يتحسس يدي يبحث عن الشمعة:

- هاتي، قرّبي الشمعة مني لأشعلها، فأنا لا أرى شيئًا.

يشعل الكبريت وأنا كعمياء لا أرى في هذه العتمة الدامسة، يشعل الشمعة ليبدأ ضيّها يشكل لي وجه (فادي) القريب مني وما حولة...

- تعالي، سأفتح الباب ولتمسكي به كي أخرج بالتلفاز.

أُنفّذ ما قاله حتى نقلنا التلفاز للمنزل، جلس (فادي) على ركبتيه مستعدًا ومتحمسًا لتشغيله يحاول فك شفرات الأسلاك، وأنا جالسة على الأريكة أنتظر بحماس..

مر الكثير من الوقت وهو يحاول.. أظن أنه لن يعمل هذا التلفاز، إنه قديم جدًا، ترك (فادي) التلفاز بتعابير فاقدة للأمل، فأفقد الأمل معه، ينظر لي:

- من الواضح أنه لن يعمل.

- أوفف، كنت أعلم.

يكمل (فادي) كلامه مبتسم:

- هو بالتأكيد لن يعمل، إلا إذا ضغطنا على زر التشغيل.

ضغطتُ على زر التشغيل لتظهر صورة مشوشة قليلًا على التلفاز شيئًا فشيئًا.

أرى في عينيها فرحة وكأنها طفلة حصلت على لعبة تحبها، كانت سعيدة جدًا.. سرحتُ في عينيها الضاحكتين للحظات، وشعرها الناعم القصير الذي يغطي خديها الزهرين.. تقول قاطعة ذلك المشهد الذي يعرض في أحلامي:

- يا إلهي!! (فادي)، تعال واجلس فهذا الفيلم مضحك جدًا ستحبه بالتأكيد، لقد شاهدته من قبل خمس مرات، وفي كل مرة أموت ضحكًا.

جلست جانبها أجاريها، لم تكن تعلم أن تلفاز قلبي هو وجهها، ومشاهدتها وهي تضحك هو أفضل شيء يحدث في حياتي، لا يمل قلبي أبدًا منه ولا من ملامح وجهها الساحرة، دائمًا ما تتطوّق أذني كل ثانية لسماعها تنطق اسمي..

****

الفصل الثامن
(هناك شيء ما يحدث لا أفهمه!)

أَحضرَ لنا أطباق الطعام وجلس بجانبي على الأريكة بالتزام المسافات، أخذتُ طبقي منه لنبدأ الأكل، لأجد في الطبق بعض العنب المجفف:

- هل هذا هو الطعام حقًا؟!

- لم أجد غيره في الخزانة، يجب علينا أن نقتصد في الأكل يا (إمي).

أكلتُ وأنا أشعر بحزن وضِيق لما وصل له حالي..

انتهيتُ من أكل حبات العنب المقدد، فأشعر بنعاس شديد، كنت أقاومه من أجل أن أكمل فيلمي المفضل، فأخيرًا وجدتُ شيئًا يلهيني عن المأساة التي أعيشها..

كان صوت ضحكها على الفيلم الذي يجذب كل تركيزها.. كان.. كان ذلك الصوت الذي يخفق قلبي عليه منذ سنوات، كم أتمنى أن تظل هذه اللحظة لآخر حياتي، كم أتمنى أن تظل بجواري هكذا حتى آخر أنفاسي، لا أريد أن أغلق عيني عنها أو أبعدها، فقد أدمنتُ النظر لها..

بعد لحظات.. أجد رأسها ملقاة على كتفي نائمة؛ ليبتسم قلبي ويقترب خدي يلامس شعرها وتستنشق رئتي عطره الزاكي..

أسمعه يقول بصوتٍ خافت وحنون:

- نومًا هنيئًا يا من عذبتِني كثيرًا.

يقوم بحذر شديد حتى لا يوقظني ويحملني بتمهل للأعلى، يضعني على

السرير ويغطيني.. يقترب يمد يده يلمس شعري؛ فيقبضها ويرجعها قبل أن تلمسني، يستدير ويغلق الباب وراءه بهدوء.

نعم! كنت أشعر به وبدقات قلبه، سمعته عندما قال (يا من عذبتِني كثيرًا).. ولكن لم أكن أفهم أي شيء أو.. اعتقدت أني أحلم.

أتعمق في نوم هادئ ومريح، ليأتي صباح يوم جديد، استيقظتُ باكرًا على ضوء الشمس المنعش وأنا أشعر بمزيج من السعادة والاطمئنان، فقد اعتدتُ على ذلك المكان الغريب، لا أستطيع أن أصفَ ذلك الشعور المبعثر.

قمت.. ووجدت نفسي أخذت معي الغطاء وأنزل للدور السفلي أتفقد (فادي).. وجدته نائمًا كالطفل ووسادته مبللة بالدموع، وضعت عليه الغطاء وأنا أتأمل حالته.. كنت أنظر له باطمئنان وهو غارق في النوم، أتساءل:

لمَ القدر جمعني مع ذلك الشخص، وبهذه الطريقة من بين جميع البشر؟! لمَ أشعر بارتياح تجاهه مع أني لا أعرفه ولم ألتقي به من قبل؟!..

أفتح عيني.. لأجد تلك العينين الصغيرتين الذي يعجز قلبي عن وصف جمالهما، أراها تبحر تائهة بين تساؤلات قلبها عني؛ لتهب واقفة بعد أن احمرّ خديها مرتبكة، تقول وهي متوجهة للمطبخ:

- هههيا.. هيا قم، فلقد تأخر الوقت.

نظر لساعته:

- إنها الثامنة صباحًا!

أقول له وأنا مرتبكة، أفكر هل رآني وأنا أنظر له أم لم يلاحظ هذا:

- بلى إنه وقت متأخر بالنسبة لي، هيا فقد أيقظني الجوع، لنأكل آخر بقايا الطعام التي في الثلاجة، لا أعرف حالته، ولكن يمكننا أن نتشاركه حتى لا نموت جوعًا.

قمتُ جالسًا أنظر للغطاء الذي غطّتني به.. أبتسم، ولكن في نفس

الوقت أشعر أني جبان وأريد ضرب نفسي ألف مرة، قمتُ متوجهة للحمام وأنا أشعر بضيق، توقفِني بسؤالها قائلة:

- ما المشكلة في صنابير الحمام؟ لمَ لا يوجد بها ماء مرة أخرى؟

رد عليّ وهو لا يعيرني انتباهه:

- لا مشكلة، ستجدين الماء مجمدًا في الخزان بالتأكيد، اعتدتُ ذلك.

- اعتدتَ ذلك؟!

يصحح ما قاله مترددًا:

- آه، أقصد بالتأكيد ستجدينه مجمدًا، فنحن في طقس بارد.

يدخل الحمام بسرعة وكأنه هارب..

أغلقتُ باب الحمام قلقًا، أعاتب نفسي:

يا إلهي! ماذا قلت، ستشك في الأمر الآن.. لا لا اهدأ لن تلاحظ.

أتوجه للحوض لأغسل وجهي؛ فتلمح عينَي وجهِي بالمرآة، تريد أن تعاتبني ولكن لا أستطيع النظر لنفسي.

كيف؟! كيف استطاع قلبكَ فعل هذا! لماذا؟ لماذا يا قدر دائمًا تؤلمنا؟ لمَ بعد أن ننسى ألمنا وعجزنا تذكرنا به مجددًا، لمَ؟..

خرج من الحمام متوجهًا لي:

- هل أساعدكِ بشيء؟

أرد عليه وأنا مرتبكة، لا أعلم سبب ارتباكي:

- لا شكرًا، أستطيع تدبر أمري.

يقع مني الطبق الذي يحمل بقايا الطعام الأخيرة لنا على الأرض وانكسر، يسرع (فادي) إليّ وهو خائف.. اقترب مني حتى كدتُ أشتم رائحة أنفاسه

الخائفة، يتفقد يدي:

- هل أنتِ بخير؟ هل أصابكِ مكروه؟ هل جُرحتِ؟

تعجبت من اهتمامه الزائد، ابتعدتُ عنه قليلًا وقلتُ مطمئنة له:

- لا لم يحصل شيء.. أنا بخير، فقط ابتعد من هنا حتى لا يخترق الزجاج قدميك.

يمسك بي ويبعدني:

- لا اذهبي أنتِ واستريحي قليلًا، أعتقد أنكِ بحاجه للراحة، سأ لمّ الزجاج بدلًا عنكِ.

- يا إلهي على غبائي! سنموت جوعًا الآن، ماذا أفعل؟.. أنا آسفة حقًا يا (فادي)؛ فقد أفسدتُ ما تبقى لنا من طعام.

يتفحص الطعام الذي على الأرض:

- حقًا! أنت حزينة على هذا الطعام الفاسد، حمدًا لله أنه وقع على الأرض ولم نأكله، كنتِ ستقتلينا مسمَّمَين من هذا الطعام، لا تقلقي أنا لم أكن جائعًا، وعلى كل حال فقد تبقى القليل من العنب المجفف في الخزانة.

أخذني من يدي بلطف وأجلسني على الأريكة:

- فقط ابقي أنتِ هنا بهدوء واستريحِي، لا تجهدي كل طاقتك فلا يوجد الكثير من الطعام.

ذهب هو لينظف ما أفسدته، وعقلِي ظل يفكر في تلك اللحظة التي خاف فيها عليّ! كان مهتمًا جداً! هل هذه طبيعته؟!.. أم هناك شيء لا أفهمه؟! لمَ يتعامل معي دائمًا بلطف؟!

جاء لي بطبق به العنب المجفف المتبقي يمدّه لي، لم أرى في يده طبقًا آخر:

- وأنت، أين طبقك؟!

- إنه بالداخل، سآكل أنا هناك.

استغربتُ؛ لمَ لم يجلس لنأكل سويًا كالمعتاد، تركته يذهب فقد يكون لديه سبب.. أكلت وكأني لم آكل منذ سنة، مع أن طعم العنب المقدّد حامض وغير لذيذ أبدًا، قضيتُ على ما في الصحن.. بعدها ذهبت أترقب ماذا يفعل، ولمَ تركني آكل وحدي؟!

ذهبتُ بتسلّل، ولكن..

وجدته يلتقط بقايا الطعام الفاسد الممزوج بالزجاج الذي وقع مني يأكلها! صعقتُ مما رأيتُ! وأمتلأ وجهي علامات الاستفهام.

اختبأتُ بسرعة حتى لا يلاحظ وجودي، كان جفني يرتعش يريد أن يخرج دمعَهُ هل؟!.. هل أعطاني حصته من العنب؟! وأكل هو ذلك الطعام الفاسد؟! لمَ؟! لماذا يفعل كل هذا؟!

ذهبتُ مسرعة لغرفتي أتساءل:

هل سيظل حالنا هكذا؟ لمَ أعطاني حصته؟ لمَ أشعر بهذا الشعور الذي لا أفهمه؟ لماذا يفعل معي هكذا؟!

سمعته يقول بصوت عالٍ:

- (إمي)، سأخرج أتفقد هذه الجزيرة، لعلّي أجد بعض الثمار بالقرب منا وأعود سريعًا، لن أتأخر.

أغلق باب المنزل، نزلتُ بعد ذهابه أجلس على الأريكة؛ لأمسك بوسادته أتحسس الدموع التي كانت عليها، هناك شيء لا أفهمه.. ماذا تخفي بداخلك يا (فادي)؟! أشعر بشيء صلب تحتي!

قمت أتفحص ما هو؟!..

لا يوجد شيء! أبعدت وسادة الأريكة؛ كي أزيل ذلك الشيء المزعج، لابد أنه بالأسفل.. ماذا؟!... إنه.....!

****

الفصل التاسع
(الحقيقة)

مسدس؟! ماذا؟!.. ماذا جاء به إلى هنا؟! وما يعني هذا؟!.

أُمسك به ويدي ترتعش، ليتدفق الدمع من عيني مصدومة.. الآن وجدت إجابات لأسئلتي الحائرة التي لم تكن تعرف الحقيقة..

لقد كذبَ علي!.. إنه قاتل؟.. نعم.. بالتأكيد يعلم أين نحن..

أنظر للصورة المعلقة على الحائط.. هذا الصبي.. إنه هو بالتأكيد.

نعم..

تردّدُه في كلامة ووقوعه في أسئلتي.. لقد فسر هذا المسدس الكثير..

لماذا؟! لماذا كان يكذب؟!

أشعر بالخوف يتغلْغَل في جميع أنحاء جسدي، أفكر فيما قد أفعل بعد أن عرفتُ حقيقته؟!

لا.. لن تكون نهايتي مثل ذلك الرجل الذي قتله ودفنه بقلب ميتٍ ودماء باردة!..

يجب أن أجدَ حلًا وأُخرج نفسي من هنا، يجب أن أهرب.. إنه قاتل..

فجأة.. أسمع صوت صرير باب المنزل يُفتَح، أسرع بوضع المسدس مكانه، أمسح دموعي وأعود لحالتي الطبيعية قبل أن يشعر بشيء، أظهرتُ أني لم أرى شيئًا ولم أكتشف حقيقته، وفي الوقت المناسب سأهرب..

جاء (فادي) متجهًا نحوي، كنت لأول مرة أشعر بالخوف منه، قلتُ له وأنا أحاول الابتسام أخفي ما بداخلي:

- غريبة، لَم تتأخر!

نظر لي باستغراب وكأنه يشعر بشيء:

- لم أجد شيئًا بالجوار سوى هذه الثمرة الذابلة، يمكنكِ أكلها، وبصراحة خفتُ أن أتركَكِ وحدك كثيرًا حتى لا تقلقي كالمرة السابقة.

جاء يجلس بجانبي، ابتسمتُ ولكن قلبي تزداد نبضاته من الخوف، أحاول التظاهر أني طبيعية قدر المستطاع.. مد يده بالثمرة يعطيها لي، مددتُ يدي آخذها..

لاحظتُ أن يدها خائفة ترتعش، ما خطبها؟!

نظرتُ إليها ممسكًا يدها بكفي:

- لمَ يدكِ باردة وترتعش هكذا يا (إمي)؟! هل أنتِ بخير؟!

يضع يده على وجنتي يجسّ حرارتي، أبتعد:

- لا.. أنا بخير، فقط أشعر بالإرهاق، أريد أن أرتاح قليلًا.

أنهض مسرعة لغرفتي مغلقه الباب ورائي، أسند ظهري ورأسي عليه؛ ليتحول التوتر والخوف إلى دموع، أبكي وأنا أضع يدي على فمي.. لا أريده أن يسمع صوت بكائي حتى لا يشعر بشيء.

جلستُ في غرفتي حتى المساء، لن أستطع الصمود أكثر، يجب أن أهرب وأعود لحياتي مرة أخرى.

فتحتُ باب الغرفة بهدوء وخرجتُ متسللة..

أنزل من السلم بحذر حتى لا أصدر صوتًا، وجدتُه جالسًا على الأريكة مستيقظًا، أعود بهدوء لغرفتي.. إنه ليس الوقت المناسب بعد.. عدتُ أنتظر نومه.

..

يا تُرى ماذا جرى لها؟! إنها ليست على طبيعتها! وكأنها خائفة مني! هل شكّت في الأمر؟!.. يجب أن أعترف لها بما في داخلي، يجب أن تعرف كل شيء.

يا إلهي لا أعلم ماذا أفعل.. يجب عليّ أن أصارحها في أسرع وقت ممكن، ولكن كيف؟!

كيف لها أن تحبني بعد أن.. لا لا أستطيع إخبارها..

أضع رأسي على وسادتي حائرًا في أمري..

..

إنها الثالثة صباحًا..

قمت أتفقده، إنه مستلقٍ على الأريكة، لابد وأنه غارق في النوم، أخرج وأخطو بتسلّل.. ذهبت بكل هدوء أفتح باب المنزل، خرجتُ وأغلقتُ الباب ورائي وأنا أشعر بالتحرر والقلق في وقت واحد.. ستعينُني يا الله على طول الطريق.

أبدأ خطواتي الأُولى لأبتعد عن الكوخ بسرعة قبل أن يكتشف، ولكني كلما أبتعد عن المنزل يبدأ القلق بازدياد داخلي، كنت أحاول قدر المستطاع بتجاهل قلقي لأكمل.. وأنا أمشي جلستُ أتفكر في هذا المكان الغريب:

إنها كغابة في أشجارها، وصحراء في كبرها، وكالأماكن المهجورة في هدوءها، مكان غريب حقًا!

ها أنا أمشي وأمشي، حتى قطعتُ مسافة كبيرة، ولا زالت العزيمة والإصرار بداخلي، ولكن قدميّ تقول لي لمَ لا تجلسي قليلًا وترتاحي؟

توقفتُ وجلست جانب شجرة عملاقة، أشعر بالنعاس وعيني تُغلَق شيئًا فشيئًا، أسندت رأسي على الشجرة؛ لأغفو قليلًا.

شعرتُ وأنا في غفوة عميقة بوخزٍ في قدمي يزداد شيئًا فشيئًا..

أقوم بفزع وأشعر بألم هائل، أنظر لقدمي؛ لأجد أفعى ملتفه عليها!

صرختُ بأعلى صوت من شدة الألم، أخذتُ حجارة من جانبي، أضربها بقوة حتى ابتعدَت عن قدمي..

لم أكتفي.. ظللتُ أضربها بعنف وكأن بداخلي غضب أُخرجُه عليها حتى ماتت..

لأجد قدمي تنزف!.. لقد عضّتني بقوة!

جلستُ أحاول إخراج السم من قدمي ودموع الألم تنهمر مني، لا أحتمل شدة الألم، أشعر أن أحدًا قطع قدمي بسكين حاد..

لتأتيني حالة من الهبوط الشديد، رأسي ثقيل جدًا، ضربات قلبي غير منتظمة، أطراف يدي شديدة البرودة، وجدتُ نفسي ملقاةً على الأرض مغمًا عليّ..

شعرت بنفس الوخز بقدمي لأستفيق، فتحتُ عيني وأنا أشعر بألم شديد.. (فادي) يضمّد لي الجرح!

تبعثر لساني مصدومة:

- ككيف؟! ماذا؟!

يضع يده على رأسي يهدئني قائلًا بصوت دافئ:

- اصمت، نامي واهدئي، لا تقلقي أنا بجانبك.

أغيب عن الوعي مرة أخرى..

لأستيقظ من نوم عميق، فأجد نفسي مستلقية على الأريكة في ذلك الكوخ مرة أخرى!

كيف؟ كيف عدتُ إلى هنا مرة أخرى؟! كيف عرف مكاني؟! هل كان يتتبّعني؟ وهل حملني كل هذه المسافة؟!

قمتُ جالسة بصعوبة، أشعر بألم في أنحاء جسدي.. أبحث عنه بعيني ليجاوب على أسئلتي هذه، لكن أين هو؟!

التقَطَتْه عيني وهو يخرج من المطبخ وبيده صينية مليئة بالطعام والفاكهة!

جاء يجلس بجانبي يمد يده باللقمة إلى فمي:

- هيا.. هيا يا (إمي) افتحي فمك لتأكلي، مناعتك ضعيفة جدًا الآن.

أبعدتُ يده بغضب لتقع الأطباق ويتبعثر الطعام على الأرض، قمتُ وسحبت المسدس الذي تحت وسادة الأريكة أوجهُه عليه، أصرخ بانفعال:

- من أنت؟ وماذا تريد مني؟! من أين أتيتَ بهذا الطعام كله؟ فأنا أعلم أنك أنت من قتل ذلك الرجل، فلا يوجد بشري في هذا المكان سوانا، أنت تعلم أين نحن وتعلم أن هناك مخرج.. لمَ؟! لمَ تحبسني هنا؟! ومن أين أحضرتَ الطعام وتجعلنا نموت جوعاً كل هذه المدة؟! أجِبني وإلا سأطلق عليك الرصاص وأرتكب فيك جريمة.. لماذا تفعل هذا بي؟ أجبني... أجبني!

رد قائلًا وهو قلق يقترب مني يحاول مهاودتي:

- حسنًا!.. حسنًا اهدئي.. سأقول لكِ كل شيء، فقط لا تجهدي نفسك ستموتين، لقد تعرضتِ لقرصة حية سامة، أرجوك.

صرخت:

- لا!.. لا تقترب مني، لن أهدأ إلا أن تجيبني.

يطلب مني بترجّي والخوف يظهر على رعشة أوتار صوته وأطراف يده:

- أرجوك!.. أرجوكِ اجلسي واهدئي وسأحكي لك كل شيء.. ستفقدين وعيكِ.

وأنا في قمة انفعالي، شعرت أن صوته يتلاشى وكأن هناك غيمه سوداء تمر أمامي، وجسمِي ثقيل جدًا، يزداد وزن المسدس في يدي، حتى يقع مني وأجد نفسي ملقاة بين ذراعيه.

..

قمت على صوت بكاء خافت، فتحتُ عيني لأجد (فادي) جالسًا على الأرض بجانبي، كان يقول والدمع يزحف بين شَعْر ذقنه:

- أتريدين معرفة الحقيقة؟.. حسنًا.. فقد تعبتُ أنا أيضًا من حملها على قلبي، تعبتُ من إخفائها عنكِ، تعبتُ.. وتعبت روحي... أنا لم أراكِ صدفة ملقاةً في الطريق.. وأنا لا أعمل سائقًا منذ أن مات خالي..

بل أنا قاتلٌ مأجور أعمل لدى صديقه السيد (جاد)..

أُمرتُ بقتلك، كنت فردًا من الذين هجموا عليكِ بسيارتهم في الطريق ذاك اليوم، كان الرجل يريد الانتقام لولده الذي توفّي في قسم الطوارئ عندك، لم أستطع أن أرفض ما كان يُطلب مني، فقد وصّاني خالي (ماجد) بأن السيد (جاد) هو بمثابة أخ له، أمرني بأن آخذك بعيدًا؛ لأفعل بك ما أشاء، ومن ثم أقتلك وأدفنكِ لأخفي آثار الجريمة.. هذه هي الحقيقة التي أردتِ سماعها.

..

كنت أسمع ما يقوله وأنا مصعوقة! في حالة صدمة شديدة، أشعر بسكون في أجزاء عقلي!

قمتُ بكل هدوء والصدمة تملأ تعابير وجهي، أتسنّد على ما حولي، فيقف محاولًا مساعدتي؛ لأدفعه بقوة عني وأتولى أمر نفسي.

صعدتُ إلى غرفتي وأغلقتُ الباب وأنا لا أبدي أي ردة فعل، وكأني لم أستوعب ما قاله..

بعد لحظات وجدتُ الدموع تخرج من جفني وبدأتُ أنهمر باكية:

كيف؟! كيف حصل كل هذا؟ ولماذا؟.. ما ذنبي أنا! أنا لم أكن المذنبة، كان قدر الولد أن يموت، هذا يعني أن من المفترض أن أكون قد دُفِنتُ الآن؟!

لماذا بعد هذه المدة التي عشتُها معك وشعرت وكأني عشت معك سنين حياتي كلها، شعرتُ أنك نهايتي وقدري الذي سأعيش معه ما تبقّى من عمري، كنتَ لعقلي غريبًا، ولكن بالنسبة لقلبي.. كنتَ قريبًا، قريبًا جدًا لدرجة أني شعرت معك بالأمان والحنان الذي حُرمتُ منه، لمَ تكسرني بهذه الحقيقة المؤلمة؟! لماذا الآن يا (فادي)؟!

كنت أسمع بكاءها فأتألم ويعتصر قلبي، صعدتُ لغرفتها ولكن لم أتجرأ أن أدخل وأطلب منها أن تغفر لي وترحم قلبي من العذاب قليلًا..

جلست عند باب غرفتها أعاتبُ نفسي حتى ينخفِضَ صوت بكاءها شيئًا فشيئًا؛ ليهدأ الألم في قلبي قليلًا.

قمتُ أفتح باب غرفتها بهدوء، أدخل بعدما شعرت أن جفونها غفَت من تعب البكاء، أنظر لها وهي نائمة كالجنين تضم وسادتها الغارقة بالدموع، لقد نامت والدمع على خديها!

كم أنت حقيرٌ عديم الرحمة..

اقتربتُ منها وأخرجتُ من جيبي قلادتها التي بحثتُ عنها في كل زاوية بحياتها، عدا زاوية قلبي التي خُلقَت من أجلها..

وضعتُها بجانبها وظلّت عيني تنظر لها نظرة الوداع، أحاول أن أجمع صورًا لها في ذاكرتي، أغمَضتُ عيني لأبقيها في مخيلتي لأطول وقت ممكن..

..

أيقظني بدمعة دافئة نزلت من جفنه على خدي، وإذ بـ(فادي) على مقربة مني كأنه يحدثني..

..

شعرتُ بأنها استيقظَت، استدَرتُ بسرعة متوجهًا للباب، فقد قررتُ أن أبتعد وأخرج من المنزل ومن حياتها كما فعلتُ سابقًا مهما كان مصيري، حتى لو قُتِلت، كل ما أريده أن تبقى هي بأمان هنا، فقد أصبحتُ لا أستطيع مواجهتها بعد أن قلتُ لها حقيقتي، فشعوري عندما أراها تكرهني سيقتلني في كل مرة.. ولن أتحمل، يكفي ما جرى لها من عذاب.

***

الفصل العاشر

(وداعاً للحزن!.. أم مرحبا بالدموع من جديد؟)

قمت وراءه، وجدتُه يضع يده على مقود باب المنزل يستعد للذهاب والخروج منه، ولكن..

وجدَني خلفه أسأله بغضب ودموع:

- لمْ؟!.. لمَ لَمَ تقتلني إلى الآن؟!

لم أجِبها.. فتحتُ الباب هاربًا من سؤالها الذي سيفتح باب قلبي من جديد..

أسرعَت بخطاها نحو الباب تغلقه بقوة وتقف أمامي تنظر في عيني وهي تكرر سؤالها لي، لا تعلم أن النار التي تستيقظ في قلبي كل يوم هذه بسببها:

- لمَ لَمْ تقتلني إلى الآن يا (فادي)؟! لقد كنتُ أمامك طيلة الوقت..

ترفع القلادة لمستوى عيني تكمل أسئلتها:

- وأين وجدتَ هذه القلادة التي لم تكن تفارقني؟! من أين حصلتَ عليها أجبني؟! أأنت الرجل الذي كان يجُول بأحلامي؟! أنتَ الذي كانت معك قلادتي؟!.. أجِبْني يا (فادي) أرجوك!

يقول وعينه بعيدة عن عيني:

- لم أجِد سببًا مقنعاً لقتلكِ.

نظرتُ له وعيني تذرف الدموع:

- انظر لي يا (فادي) وأخبرني بالحقيقة.. كلامُكَ ليس مقنعًا، فأنت قاتلٌ

مأجور ولن تحتاج سببًا لقتلي، لقد عشتُ معك لفترة قصيرة، ولكن شعرتُ وكأني عشتُ حياتي بأكملها هنا، شعرتُ معك بالأمان وكدتُ أحب...

نظرتُ لها وقلت قبل أن تكمل كلامها:

- لا أرجوكِ! لا تُكمِلي.. لا تقولي أنكِ أحببتِ ذلك المجرم الذي يقف أمامك.

تتوهُ عيني العاشقة في عينها، أتمنّى لو يرجع بي الزمن وأعترف لها في ذلك الوقت قبل أن يحدث كل هذا..

كان ينظر لي وفي قلبي يحدث شيء غريب لا أستطيع وصفه.. أضع نفسي بين ذراعيه:

- بلى.. بلى لقد أحببتكَ وأحببتُ كل دقيقة عشتُها معك.. أحببتُ كل لحظة شعرتُ فيها باهتمامك وحنانك.. عوضتَني عن أشياء كثيرة افتقدتُها، أحببتُكَ وأحببتُ هذه اليدان التي لا طالما حملَتْني إلى فراشي وأشعرتني بالأمان.. أحببتُ عينَكَ التي كُنتَ تغار منها عليّ.. أحببتُ قربكَ وأحببتُ صوتك.. نعم.. للأسف لقد أحببتُكَ ولم أستطع أن أوقف قلبي عن حبك.

..

لم أصدق ما كنت أسمعه!

فمقدار السعادة في قلبي الآن؛ أشعر بالألم وحرقة في صدري، وكأن سكاكين حادة تطعنني في قلبي..

ما ذنبها أن تحب مجرمًا مثلي!

لم أستطع الصمود والسيطرة على مشاعري أكثر، لم أعد أستطيع مجاهدة نفسي وحبّي لها، ضمَمتُها إليّ بقوة كالطفل الذي كان يحتاج أن يعرف معنى الحنان.. كم كنتُ مشتاقًا لتلك الضّمة التي حُرمت منها منذ الصغر.

يعاتبني بنبرة يملؤها الحب والاشتياق:

- لمَ؟!.. لمَ أحببتِني بعدما أصبحتُ مجرمًا؟ فقد كنت أمام عينيك طيلة الوقت ولم تنظري لي نظرة، كنت أتبعكِ في كل مكان ولم تفارقي عيني ولا لحظة.. كنتُ أودّ أن أذهب وأخبركِ أنك تحملي قلبي في كل مكان ذهبتِ له، ولكن دائمًا ما كان انطوائي أمامكِ يعجزني، دائمًا ما كان عقلي يقف أمام قلبي ويقول له: لو أحبّتكَ فلن تجد الحنان؛ لأنك حُرمتَ منه ولا تعرف معناه.. إن أحبّتك لن تجد معك العائلة المستقرة؛ لأنك لم تجرب من قبل معنى العائلة.. إن أحبّتك لن تستطيع أن تبني لها المنزل الذي يليق بها، فهيَ تعيش في قصر داخلك.. كيف لك أن تعترف لها بحبّك العاجز؟ لم أستطع ولم أحتمل هذا الخطاب القاسي الذي يسلبُ مني الأمل، كلما رأيتكِ شعرتُ أني ضعيف، أصبح بالي منشغلًا بكِ ليلًا ونهارًا حتى بانت نتائج هذا الانشغال في دراستي وعملي.. خرجتُ من كلية الطب التي كانت تجمعنا بعد أن رسَبْتُ في ثلاث مواد، شعرتُ أني لا أريد أن أكمل، فرغم قساوة قلبي إلا أنه يتأ لم بسرعة.. لقد كنتُ أحترق من داخلي عندما أراكِ تتحدثين مع أحد غيري وأنا أمامك بخطوتين ولا أستطيع أن أتحدثَ معكِ.. لقد تعبت، كنت أخاف أن أكلمك وأفصح لكي عن حبي فأجرح لك حياءكِ أو أحرجك، ودائمًا ما كان يراوضني كابوس رفضك لي إن اعترفت لكِ، لكني علمتُ بعد سنة من فقدان عيني لملامح وجهكِ، إن ألَمَ الندم والشوق أصعب، فقد أدمنَت عيني رؤيتكِ أمامها، كنت أحترق من داخلي وتألمتُ كثيرًا، لم أستطع أن أكمل على هذا الحال، قلت لنفسي وقتها: عندما يكتب القدر لكِ أن تحب شخصًا وهو لا يعلم بما في داخلك، هذا قدركَ يا قلبي فلا تحزَن.. عندما تتألّم وتتأ لم ولا تجد من يواسيك، هذا قدرُكَ يا قلبي؛ فلا تحزن.. ابتعدتُ كثيرًا كي أنساكِ وأمحوكِ من ذاكرتي، ولكن القدر وَجدَ اللذة في إرهاقي، لم أصدّق عندما أطلعني السيد (جاد) على صورتك، وقال لي أن من أريدكَ قتلها تدعى (إمي) تعمل طبيبة في قسم الطوارئ، ظلّت عيني تتفقد ملامح وجهك

بعناية لأشعر بقشعريرة وكأن قلبي عاد ينبض من جديد، أعطاني جميع معلوماتك وتحركاتك، وقال لي:

- سأعطيك مهلة ثلاث ليالي لكي تستمتع بها، ومكافئتك ستأخذ نصفها الآن؛ لأني أثق بتربية خالك، والنصف الآخر عندما تأتيني بآخر قطرة دم في جسدها..

ذهبت بسرعة لأتأكد هل أنتِ التي يعرفها قلبي أم أن إحساسه كاذب، ذهبتُ إلى عيادتك ولم تكوني متواجدة، فسألتُ أحد الممرضات هناك ودلتني عن منزلك، وعندما وصلت اختبأت وجلستُ أترقّبك وأنت تغلقي سيارتك وتدخلين منزلك؛ ليبتهج قلبي قائلا: نعم.. إنها هي، لم تتغير، لا زالت ذو الشعر الجبلي القصير والعيون اللوزية الصغيرة.. هي... هي يا قلب! هي من سلبَتْك سعادتك.. هي يا عين.. هي من سلبتكِ نومكِ.. لقد صدقتما..

حينها لم أتوقع أنكِ في يوم ستصبحين بين يدي عندما هجمنا عليكِ بسيارتنا، أمر السيد (جاد) السائق بأن يبقى معي ليساعدني، وبما أني المسؤول في المهمة دلّيته على طريق هذا الكوخ، الكوخ الذي أهرب إليه عندما تضيق بي الدنيا وتقسو عليّ؛ فأشعر فيه بالأمان والراحة، عندما وصلنا إلى هنا نزلت لأحملكِ وساعدني السائق لنصعد بك ونضعكِ على السرير، أوصلته إلى الباب ليذهب، فقال لي بخبث وابتسامه حقيرة:

- يا صديقي، هل يمكنني أن أشاركَكَ بها ولنستمتع نحن الاثنان سويًا، فهي لن تشعر بشيء، ومن المحتمل أن تستمتع عندما تستيقظ بما فُعل بها.

لم أحتمل ما قال، وجهتُ له لكمة على وجهه ووضعت المسدس على رأسه لأخيفه ويخرج من المنزل:

- أترفَعُ السلاح على زميلك من أجل فتاة؟!
- لن يمسَ هذه الفتاة أحد، ولا حتى أنا..
- أهذا كان اتفاقك مع السيد (جاد)؟!

- لا تعنِيني أنت ولا السيد (جاد) هذا، أفهمت؟
- ولكن إذا عرف سيكون آخر يوم في حياتك.
- لا تقلق لن يخبره أحد، فلن تعود سالمًا له.

أخرج سكينًا من جيب سترته، وجرحَ معصم يدي بقوة ليسقط السلاح منها، واقترب ليطعنني بها؛ فأصد يده بقوة ويرتطم رأسه بالجدار، يهبّ هاربًا فألتقط المسدس من الأرض وأطلق عليه النار قبل أن يهرب ويخبر السيد (جاد) أني هربت بكِ بعيدًا عن أعين الناس؛ لتكوني لعيني وحدي..

لم أستطع أن أرى أحدًا يؤذيكِ حتى ولو كنتُ أنا، وتسأليني لمَ لم أقتلك؟! لقد كنتُ ضعيفًا جدًا أمام عينيكِ، أنتِ نقطة ضعفي وقوتي..

..

تزداد قوة ضمّتها لي، كادت دموعها تغرق قميصي، كم من السنين استغرق قلبها ليشعر بي..

- كفى.. لقد أرهقتَ قلبي بعتابك.. كفاك عتابًا يا (فادي).

في هذه اللحظة أردت أن أخفيها عن الناس في أحضاني، لم أرد أن أبعدها عن صدري وذراعي الذي يطوّقها..

ظل هذا العناق الذي يملأه اشتياق بعد طول انتظار حتى تعبت أقدامنا فتجلس على الأرض وهي متشبّثة بأحضاني تسحبُني معها، ليخدّرنا مخدر الحب وننام في أحضان قلوبنا.

..

استيقظتُ من النوم وأنا أشعر بسعادة لا تُوصَف، فقط قلبي هو من يعرف مقدارها، استيقظتُ لتشرق عيني بملامح وجهها النائمة كالملائكة..

يتوه عقلي أفكّر في مصيرها، لابد أن السيد (جاد) شعر بغيابي ويبحث عني الآن، وإن علم أنها لم تُمت سيقتلها أمامي ليحرق قلبي..

مهما يحصل.. سأعيدها إلى حياتها مرة أخرى، لن أصبح أنانيًا وأحبسها هنا، حتى لو كلّف الأمر موتي، سأعيدُها لحياتها ومستقبلها حيث تجد سعادتها، وسأظل أحميها لآخر أنفاسي.

فتحتُ عيني براحةٍ؛ لأجد حنان أحضانه تدفئني وعينه في عيني غارقة، تبتسم شفتاي له:

- هل نمنا كثيرًا، أم أني شعرتُ براحة قربك؟!

يمسح على رأسي بحنان ويقبّلني من وجنتي؛ لتنفذ أنفاسه بين خصلات شعري، أغمض عيني، أشعر كمَا لو أنني أحلم..

ينهض فجأة ويقول بحماس:

- هيا.. انهضي، سأعيدك للمدينة ولحياتكِ القديمة.

أنهض ويقول له قلبي بكل صدق:

- لا.. لم أعُد أريد تلك الحياة يا (فادي) التي عشتُ فيها وحيدة، لقد أدركتُ أنها لم تكن الحياة التي أتمناها، أصبحتَ أنت حياتي التي كنت أفتقدها، أنت الذي أكملتَ ما كان ينقصني وما كنت أحتاجه بجانبي.

نظرتُ لها وعيني تضمّ عينها، قلبي لا يحتمل كل تلك السعادة، ضمَمْتُها لي:

- آه لو تعلمين ماذا تفعلين بي، إن كنتُ أنا حياتك فأنتِ أرضي وسمائي، قمري وشمسي، حاضري ومستقبلي، أنتِ سعادتي وقلقي.

يمسك رأسي وينظر لعيني، ويكمل:

- لذلك يجب أن أراكِ في أحسن حال، لا يمكن أن أراكِ محبوسة هنا وأنتِ طبيبه ناجحة وحياتك مليئة بما هو مهم، ومصابين ينتظرونكِ أن تنقذي حياتهم كما أنقذتِني.

تبتسم وتضربني بقبضة يدها الصغيرة على صدري مازحة:

- آه كم أنت ممثل بارع! لقد أقنعتني أنه لا يوجد بالفعل مخرجٌ هنا، كيف اكتشفتَ هذا المكان الغريب؟!

- قلبي هو من جاء بي إلى هنا، بعد أن عشتُ وحيدًا لسنوات، اتبعته وكنت أريد الابتعاد فقط عن البشر، حتى جاء بي إلى هنا؛ فشعرت وكأني أنتمي إلى هذا المكان، وجدتُ فيه راحتي واستقلالي بذاتي.. هيّا لا تجعلينا نضيع الوقت في أحاديثي التي لا تنتهي، سنعود للمدينة ونشتري بعض الملابس اللائقة لنا، وسأطعمكِ في مطعم لن يعجبكِ بعده أي طعام آخر في المدينة، هيّا فالمدينة تبعد عن هنا بعض الأميال فقط بالقارب.

أتعجّب من بساطة الأمر وأنا التي حسبتُها نهاية حياتي!

- بالقارب؟!

- هههه، نعم تعالي.

نخرج من المنزل متوجهَين إلى البحر، يمسك بيدي والشمس المبتهجة تنير وجهه أمامي، وللحظة أصبحتُ وكأني أرى حلمًا ببطء، البسمة على وجهه وهو يمسك بيدي ويركض نحو البحر ليطلعني على سره، توجّه خلف شجرة كثيفة الأوراق بقرب البحر ليجر من وراءها قارب صغير:

- هذا هو سري الصغير.

- ماذا؟!

- نعم، طريقة الوصول إلى المدينة كانت عن طريق البحر، فهيّا لا تبعد عن هنا سوى بعض الأميال فقط، إن المدينة خلف هذه الجزيرة، ومن الجميل أنكِ إذا عبرتِ من داخل الجزيرة ستضيعين ولن تجدي نهاية الطريق، أما عن طريق البحر فقد تصلي بسرعة إلى المدينة وخلال دقائق أيضًا، كانت الطريقة الصحيحة للخروج من هنا بحرياً وليس برياً.

أبتسم غير مصدقة لكلامه:

- لا أصدق، كم أنت لئيم! كيف خطر لك مثل هذا المكان؟!

يجري نحوي متحمسًا يحملني وساقه تغرق في الماء ليضعني في القارب، ويقفز به ليبحر بنا نحو المدينة فتبحر عيني بتأمله..

كنتُ أتمنى لو تقف بنا هذه اللحظة وأنا أرى السعادة على وجهه وهو يجدف بقوة، لقد عرفتُ الآن رائحة هذا العطر التي كانت مألوفة لأنفي، فدائمًا ما كنتُ أشعر بها حولي وكأنها تتبعُني، كنتَ أنت يا (فادي)، أنت الذي كنت بجانبي وتساندني دائمًا وأنا لا أراك...

كنت أرى عينيها المتعلقة بي تقول كلامًا كثيرًا وهي صامتة، لم أرغب بأن ترفعها عني أبدًا.

..

ها قد وصلنا، أقُل لها مشتّتًا عينها التائهة:

- أرأيتِ كم كان الطريق قصيرًا، ما رأيكِ في ذكائي ها؟ هيا اعترِفي.

ترد عليّ مازحة:

- لا، هذا ليس ذكاء، هذا عبقرية في الحقيقة يا أستاذ (فادي).

بعد أن زحف القارب إلى الشاطئ نزلَت، تضع يدها على أكتافي لأمسك بخصرها الصغير أحملها خارج القارب، تنزل إلى مدينتها وحياتها التي اشتاقت لها، نزلَت وعينها لم تصدق أنها عادت من جديد، ولكن سرعان ما تلتَفِتُ لي:

- عِدْني يا (فادي)، عِدني بأنك لن تتركني وحدي أبدًا وستظل معي طيلة العمر.

أنظر لعينِها القلقة:

- أعدكِ بأنكِ ستظلين دائمًا في قلبي ولن تفارقيني لحظة، وأعدكِ أيضًا أني من الغد سأبدأ عملًا جديدًا وسأنسى الماضي، وستكونين أنتِ حاضري وسأجلب منكِ المستقبل، وسأبقى حتى أرى أحفادهم، لا

تخافي أنا دائمًا بجانبكِ مهما ابتعدَت المسافات.. دعينا الآن نذهب ونأكل؛ لأني أتضور جوعًا حقًا، وقد آكلُكِ الآن.

قلبي سعيدٌ بما قاله، ولكني قلقة ولا أعلم السبب، تجاهلتُ ذلك الشعور:

- كيف لنا أن نذهب بتلك الملابس المتسخة؟! سيتم طردنا على الفور.

- لا تقلقي، سنذهب أولًا إلى محل الملابس؛ لنشتري بعض الملابس الأنيقة لنا، تعالي.

دخلنا أول متجر واجهناه في الطريق، كانت الناس تنظر لنا مستغربين لحالتنا وكأننا كنا في معركة، بعد طول بحث على ملابس بسعر مناسب جاء (فادي) يعطيني فستانًا أحمر قصيرًا أنيقًا لأقيسه، ضحكت باستخفاف:

- ماذا؟! إنك تمزح بالتأكيد، إنه باهظ الثمن، من أين سنأتي بالمال لهذا الشيء؟!

- أرجوكِ، فليكن كاعتذار منّي لكِ لما ضيعتُ من حياتك، فهذا المال مالك، إنه المال الذي أخذته من السيد (جاد) مقابل إنهاء حياتك.

- أوه حقًا! شكرًا، لم أكن أعلم أن حياتي باهظة لهذه الدرجة، دعنا لا نُسرِف المال كله الآن.

آخذ منه الفستان أضعه جانبًا وأكمل البحث عن شيء مناسب؛ لأرى ملامح الحزن تتشكل على وجهه، فأعود لأخذ الفستان:

- لن نشتريه، ولكن قد أقيسه فقط إن أعجبك.

تتغير ملامح وجهه فورًا ويبتسم، دخلتُ غرفة القياس لألبسه، وعندما خرجت وجدته يعطي المال لصاحب المحل ويستلم فاتورة الشراء وهو ينظر لي ويشير إلى لافتة فوق الكاشير مكتوب عليها...

«(لا استرجاع ولا استبدال)»

يقترب ويتفحص الفستان عليّ قائلًا بلطف:

- يا للهول! أكاد لا أصدق عيني! ما هذا الجمال؟!

ابتسمتُ خجلًا من كلامة اللطيف، ليكمل سخافته:

- فعلًا جواربك في غاية الروعة مع الفستان هههه.

أفهم مقصده وأشعر في كلامه باستهزاء، فأرد له الضربة قائلة:

- حقًا! لنرى قميصك المشقوق من أسفل ذراعك هذا إذًا هههه.

ينظر إلى قميصه يتفقّده:

- أوه يا إلهي! إنه مشقوق بالفعل، لقد كنت أحبه.

تسحبني من يدي:

- حان دورك، لنبحث لك عن بدلة جميلة حتى أسمح لك بالوقوف جانبي.. امم دعنا نرى هذه، خذ البسها لنرى.

أخذتها ودخلت أقيسها، وعندما خرجتُ لأريها وجدتها في حاله هستيرية من الضحك:

- ماذا؟! ما الذي يضحكك؟!

أشارت إلى بنطال البدلة ولا تستطيع التحدث من كثرة الضحك:

- بنطالُك، إنه قصير جدًا عليك، أم أنك طويل القامة، يجب أن ترى نفسك بالمرآة.

- حقًا! هذا هو اختيارك يا آنسة (إمي).

تذهب وتحضر بدلة أخرى:

- لا لا اخلعها، إنها فظيعة عليك، خذ هذه.

- لعلّ أكمامها تكون قصيرة!

تلازمني الضحكة:

- لا لا تقلق، أنا واثقة من اختياري هذه المرة، عرفتُ مقاسك يا ذا القامة الطويلة.

أخذها مني ودخل الغرفة ليقيسها؛ لأغتنم الفرصة حالما يخرج (فادي) وألتفِتُ إلى ملابس السنة الجديدة؛ فلي زمن لم أتسوق لعدم تفرغي..

أسمع (حمحمة) رجل خلفي، ألتفِتُ لأجد (فادي) يقف بثقة وهو ينظر للسقف، كانت البدلة جميلة عليه جدًا، وكأنه رجل أعمال هام:

- إنها مناسبة جدًا.

ليقول لي بتكبر مازحًا:

- يا آنسة، لقد ولدَتني أمي جذابًا، لا تتعجبي.

ضحكتُ مستهزئة من ثقته بنفسه، ويضحك معي على نفسه:

- لا أتخيل نفسي متعجرفًا هكذا، هيا تعالي سنذهب للمطعم الذي أخبرتُكِ به، لا يذهب إليه سوى من يلبس ملابسنا هذه، إنه لذوي المقامات الرفيعة فقط.

خرجنا من المتجر، أشعر بيدها الصغيرة وهي متشبثة بذراعي، هل تشعر بالأمان قربي أم تشعر بأني سأتركها؟!

رفعتُ يدي الأخرى لأوقف التاكسي من على الطريق، فتحتُ لها باب التاكسي لتركب كالأميرة..

ولكن..

لمحْتُ من بعيد زملائي الذين يعملون مع السيد (جاد) يتحدثون، دخلتُ بسرعة إلى السيارة مختبئًا، أعلمتُ السائق مكان وجهتنا وتحركنا بالسيارة مبتعدين عن أنظارهم وعيني قلقة تتلفت حولها، أشعر بأنهم يراقبونا.

وصلنا أخيرًا، نزلتُ وأمسكتُ بيدها لأنزلها، عيني لا ترغب بالابتعاد عنها وعن ابتسامتها الخجلة التي تعلم أن عيني عليها، دخلنا المطعم بعد أن تفقدتُ مَن حولنا:

هل من أحد يترقّبنا؟ أم أنها تهيؤات بسبب قلقي فقط؟!

كنت قلقًا للغاية من أن يحدث لها شيء، توجهنا إلى طاولتنا الخاصة، سحبتُ لها الكرسي لتجلس وجلست أنا في الكرسي المقابل لها؛ لتتأمل عيني عينها:

- كفاك تحديقًا بي، نظراتُك تقلقني! هل هناك شيء؟!

أجبتُها مبتسمًا:

- فقط أنا وأنت في عالمنا الجميل وحياتنا الجديدة، لا بد وأننا سنختار كل ما في قائمه الطعام اليوم، فنحن لم نأكل منذ يومين.

ناديت النادل:

- قدم لي كل أطباق اليوم.

يبتسم النادل:

- تحت أمرك يا أستاذ (فادي).

بعد أن ذهب النادل قلت له مستغربة:

- من الواضح أنكَ تأتي كثيرًا ومعروف هنا.

يعدل هيئته بكبرياء:

- نعم، في المهمات الخاصة.

- هههه، يا خطير.

لاحظتُ على (فادي) أن نظراته زائغة وقلقة بعض الشيء! ولكن كان

ينظر لي ويبتسم وكأنه يخبرني أنه لا يوجد شيء.

فجأة ينادي النادل بصوت مرتفع وهو غاضب وعينه تتفقد المكان:

- أين الطعام؟! كل هذا الوقت تحضر طعامًا.. هيا أسرع.

استغربتُ من ردة فعله هذه! أول مرة أجده متوترًا وغاضبًا بهذا الشكل:

- اهدأ يا (فادي)، لمَ كل هذا الغضب؟ ما ذنب النادل أنك جائع؟!

يبتسم مهاود إياي وعينه ليسَت بعيني:

- لا بأس، لا بأس سأتأسف له بعد أن نذهب، لا تقلقي.

أحضر النادل الطعام أمامنا لنبدأ في الأكل:

- هيا، هيا يا (إمي) فلنأكل بسرعة ونذهب من هنا.

- ولمَ العجلة؟! لقد جئنا للتو!

يقول مترددًا ولا زالت عينه بعيدة عن عيني:

- آه.. سنذهب إلى مكان أخر أكثر جمالًا.

- على ماذا تنظر ومهتم لهذه الدرجة يا (فادي)؟!

ألتفت لأنظر إلى ما ينظر له؛ لأرى ما قد يجذب أنتباهه لهذه الدرجة ويجعله غير طبيعي..

ماذا؟! هل ينظر لتلك الفتاة ذي الفستان القصير ذا صدر مفتوح! إنها تبادله النظرات أيضًا!

غيرتي لم تحتمل هذا المنظر، أهب واقفه بغضب:

- حقا! فلتأخذ راحتك، لن أشتّت انتباهك على الذي تحدق به، أنا ذاهبة للحمام، لقد شبعت.

- ماذا؟! لحظة.. انتظري سأ...

أتجاهل مبرراته وأدخل إلى الحمام وأنا أحترق من داخلي:

كيف ينظر لها بهذه النظرة! كيف يجرؤ! ما الذي ينقصني عنها؟! ومن تكون هذه؟! بالتأكيد كان يعرفها مسبقًا؛ فهو معروف في المطعم، وبالتأكيد كان يأتي هنا مع فتيات أخريات..

بعض لحظات أتدارك نفسي:

لا لا لمَ أصبح عقلي صغير لهذه الدرجة؟! فقد تكون عينه وقعت عليها بالخطأ، أو لفت انتباهه العقد الثمين الذي على رقبتها، أو كان ينظر إلى شيء آخر بالقرب منها.

خرجتُ من الحمام بعد أن استعدتُ هدوئي وأنا مبتسمة متجاهلة ما جرى ومتوجهة لطاولتنا.

ولكن أين هو؟! لم يكن (فادي) عليها! أين ذهب يا ترى؟

جلست بمقعدي أنتظر، لعلّه ذهب إلى الحمام وسيعود..

انتظرته كثيرًا.. لقد تأخر الوقت وبدأ الناس يخرجون من المطعم..

لم يصبح أحد سواي بالمطعم ويستعد المطعم للإغلاق وأنا جالسة أنتظره قلقة..

أقول لنفسي أطمئنها:

بالتأكيد ذهب إلى مكان ما وسيأتي، إذا جاء ولم يجدني قد يقلق عليّ، بالتأكيد ذهب ليفاجئني بشيء، إنه صاحب المفاجآت والخدع...

يأتي النادل:

- يا آنسة أعتذر على إزعاجك، ولكن سيغلق المطعم الآن.

أسأله وأنا قلقة:

- آه حسنًا، ولكن هل رأيت الأستاذ (فادي)... الرجل الذي كان يجلس

معي على الطاولة؟!

- آه نعم يا آنسة، ومن لا يعرفه هنا، لقد وضع الحساب على الطاولة وذهب من ساعتين تقريبًا مع صديقته الآنسة (روز)، لقد ركب سيارتهما الخاصة وذهبا.

لتملأ الصدمة تعابير وجهي:

- ماذا؟! هل أنتَ متأكد مما تقوله؟!

- نعم يا آنسة؛ فالسيد (فادي) والآنسة (روز) من أقدم الزبائن في المطعم، أنا آسف حقًا يا آنستي، فهو لم يقل لي أي شيء، ذهب وهو صامت معها.

كيف؟! كيف تركني وذهب؟! ومن صديقته (روز) هذه؟!

أقوم مسرعة للخارج أبحث عنه، قد ينتظرني بالخارج، تتفحّص عيني يميني ويساري، تبحث عنه..

إنه غير موجود.. والليل يشتد سواد، شعرتُ بقلق شديد وخوف غريب..

لمَ تركني وحدي؟! لماذا قد يفعل هذا بي؟! هل... هل ذهب حقًا مع تلك الفتاة أم أن النادل يقصد شخصًا آخر؟!

أوقفت تاكسي ليأخذني إلى المنزل وأنا في حالة من الصدمة والذعر، قلبي لا يستطيع تصديق ما قاله النادل، يتكرر كلامه في عقلي حتى شتت السائق صراع عقلي وقلبي:

- ها قد وصلتُ يا ابنتي.

لأستوعب أني لا أملك من المال شيئًا..

أقول له محرجة:

- أرجوك سامحني يا سيدي؛ فأنا لا أملك المال الآن، ولكن أعطني رقمك وسأوصل لك المبلغ كامل غدًا.

- يا الله، كم سنقابل أشكالًا في حياتنا كهذه؟ اخرجي من السيارة هيا اذهبي، سامحكِ الله أضعتِ وقتي ولقمة عيشي.

خرجتُ من السيارة وأنا أشعر بإهانة شديدة من كلامه، لم أتعرض لموقف كهذا من قبل في حياتي..

توجهتُ لمنزلي، أخذتُ مفتاح الطوارئ الذي خبأته في نبتَتِي بجانب الباب؛ لأفتح الباب وأجد نفسي أصعد على السلم، أشعر بدوار وألم حاد في الرأس، ألقي نفسي على السرير أبكي

لماذا فعلت هذا بي؟!

لمَ تركتني بهذه الطريقة وذهبت يا (فادي)؟!..

لمَ ذهبتَ وجرحتني بهذه الطريقة؟!

لا أستطيع أن أعقل الأمر..

لا أستطيع التخيل بأنك ذهبتَ حقًا مع تلك الفتاة.. لا أستطيع.

***

الفصل الحادي عشر
(إقامة حرب النسيان بين عقلي وقلبي)

استيقظتُ لأضع جسمي تحت الماء الجاري وأُصفّي عقلي وذهني من كل شيء، خرجتُ وأنا أجفّف شعري بالمنشفة لأرى الفستان الأحمر على السرير، فأتذكر ذلك الموقف وأتذكر نظرته إليّ عندما قال:

(يا للهول أكاد لا أصدق عيني ما هذا الجمال؟! فعلا ما أجمل جواربك هههه)

أغمض عيني وأبتسم بدمع، لآخذ الفستان وألقيه بغضب في الخزانة؛ ليقول لي قلبي:

تمهلي! لا تسرعي الحكم عليه، فقد يكون الأمر مختلف عمّا قاله النادل، أو قد يكون له عذر أو أمر طارئ.

أخذت من الخزانة ما سأرتديه وأغلقتها، تذكرت هاتفي الذي لم أفتحه منذ شهور، نزلت لسيارتي أبحث عنه، فتحتُ باب السيارة لأجده بجانب المكابح، أخذته وصعدت أضعه في الشاحن وأقوم بتشغيله؛ لأتلقى كمًّا هائلًا من المكالمات والرسائل.

- واو... ألهذه الدرجة أنا مهمة؟! لم أجد أحدًا منهم في اختفائي.

ثلاثون اتصال من المدير (طارق) غريب الأطوار هذا، ومن زملائي، وثلاث اتصالات حديثة من السيد (جاد) المجنون!

يجب أن أضع له حدًا وأبلغ عنه الشرطة جزاءً لما فعل بي، فقد تمادى كثيرًا.. ولكن.. (فادي) كان يعمل لديه أيضًا، وقد يشهَد عليه الرجل.. لا لن أفعل هذا به حتى لو تخلى عني، يكفي أنه أنقذ حياتي من الموت.

***

ظل اختفاء (فادي) مستمرًا لأسبوع كامل.

اتصلتُ على (سما) بعد أن شعرت بضيق شديد، ردّت عليّ:

- (إمي)! لا أصدق، أخيرًا، أين أنتِ؟!

قلت لها بنبرة تحمل الكثير من العِبء:

- أنا بالمنزل وأحتاجك، أحتاج أن أبكي في أحضان أحد، أرجوكِ تعالي.

- لا تقلقي يا (إمي)، ها أنا قادمة.

أغلقتُ الهاتف وتوجهتُ إلى النافذة أفكر للحظات، أين قد تكون يا (فادي) كل هذه المدة؟!

ألم يشتاق قلبك لي؟!

هل نسيتَ تلك الوعود التي أعطيتها لي؟!

هل نسيتَ حبك لي بهذه السهولة؟!

كم أشعر حقًا بفقدانك، كم اشتقتُ لأحضان عينك، كم تفتقد أذني لسماع صوتك، وعيني لتقرأ كلام عينك الذي يحمل معانيًا لا تُفهَم بالكلام، لماذا ظهرتَ إن كنت تريد الذهاب؟! كم اشتقت لك..

رنّ جرس المنزل لأستفيق، لابد أنها (سما)، فتحُت الباب، تحتضنني بقوة:

- تبًا لكِ يا (إمي)، أين كنتِ طيلة هذه الفترة، لقد اشتقتُ لكِ، ماذا يجري معكِ؟ هل أنتِ بخير؟!

أضمها مشتاقة لها:

- سأحكي لك كل شيء، ولكن دعينا ندخل للداخل.

أغلقتُ الباب وذهبنا لنجلس على الأريكة بعد أن أحضرْتُ لنا كوبين من القهوة الداكنة التي اعتادت (سما) على شربها معي:

- سأحكي لكِ ولكن أرجوك، لا يعلم أحد بهذا الكلام سوانا.
- وربّ أيام صداقتنا أن لا أنطق بكلمة عمّا ستخبريني به.

أحكي لها من بداية الحادثة حتى اختفائه..

غابت الشمس وظهر ضيّ القمر، والدموع لا تتخلى عن كل كلمة تخرج من فمي تحمل اسمه.. عينها تدمع على حالي:

- أحدَثَ لكِ كل هذا ولم نشعر بشيء! يا إلهي كم عانيتِ يا (إمي).. وأين هو (فادي) الآن؟

أرد على سؤالها بنبرة بائسة والدموع في ازدياد:

- لا أعلم، لا أعلم يا (سما)، فأنا لا أصدق كلام هذا النادل، قلبي لا يستطيع تصديق أنه تركني وذهب مع تلك الفتاة بكل هذه البساطة، اشتقتُ له كثيرًا، أشعر أني عدتُ وحيدة كما كنت من دونه.

تضمّني (سما) إلى أحضنها وهي تمسح دموعي:

- لا تبكي يا (إمي)، أرجوك، أنتِ قوية، لا تجعلي دموعك تنهمر على رجل لا يقدّرك، فهو بالتأكيد لا يستحقك، إن كان يريدك لبقي، هذه الأنواع من الرجال يظل خائفًا من مواجهة الحقيقة دائمًا، ويهرب من الواقعة، كما كان خائفًا أن يعترف لك بحبه عندما كنتم بالجامعة وفضّل الهروب، فقد خاف من المسؤولية تجاهك الآن وهرب، لا توقِفي حياتك على رجل، أنتِ طيبة ويجب أن تكملي حياتك وتعيشي وكأنك لم تعرفيه ولم تلتقي به من قبل، يكفي ما سبّبه لكِ من ألم ومعاناة، لا تطيلي التفكير في شخص لا يفكّر إلا في نفسه.

أسمع كلامها، عقلي يقول أنه كلام صحيح مائة بالمائة، ولكن قلبي يرفض الحديث من بدايته.. لقد أُرهَقْت.

بعد أن استقرت حالتي النفسية واطمأنّت عليّ (سما)، ودّعَتني.. لم تكن تعلم أنها أقامت حربًا بين عقلي وقلبي بحديثها.

أكلّمُك وأبوح بشوقي إليك..

وتواسي غربتي بكلامكَ. .بصوتِكَ

الذي لم يعد يلامس مسامع أذني

لكنه يسري بين خفايا روحي..

بدفء يديك... بلمسة طيف، لم أتذوق حلاوة كمذاق تلك اللمسة.. تسري بي.. بين وجهي..

حيث تفاصيل بسمتي.. وتأمل ضحكتي..

أشعر بكَ من بينهم ولا أراك.

***

مر يوم والآخر على هذا الوضع والحرب لا تهدأ بداخلي، والتفكير يستهلك طاقتي يومًا بعد يوم، شعرتُ أني سيدة بسِنّ السبعين عام، لا أجد شيئًا أفعله، وليس لديّ قوة لفعل شيء، وقفتُ ونظرتُ لنفسي في المرآة أسأل نفسي:

إلى متى؟! إلى متى سيظل حبه الوهميّ في قلبك؟!

أيتها المغفلة، لقد ذهب وترككِ، هل تفهمين هذا؟!

تركِكِ حتى من دون أن يقول وداعًا، أو حتى يضع لكِ سببًا لكرهه أو لانتظاره حتى..

تركك في قهرك وحيرتك وقلقكِ حتى تموتين.. إلى متى ستوقفين حياتكِ عليه؟

إلى متى سيظل يتحكم في حياتك وسعادتكِ هكذا؟!

أنتِ معتادة على أن يتركك الجميع، ما الجديد؟!..

حتى أقرب الناس إليك، تركوك وذهبوا من دون أن يودّعوكِ..

يا قلب لمَ لا تفهم، فكل يوم يزداد الألم.. كفاك صراخًا، فلن يسمعك أحد.. لن يسمعك...

..

قررتُ في صباح اليوم التالي أن أذهب للعمل وأعتذر للمدير (طارق) عن حالتي الصحية والنفسية التي أمرّ بها، ودكتور (طارق) متفهم وسيعذرني بالتأكيد، وسأكمل حياتي التي كنت معتادة عليها بعد أن أخرجتُ ما يسمى (فادي) من قلبي وعقلي..

نظرتُ لساعة الحائط، إنها العاشرة مساءً، الوقت متأخر، ولكن يجب أن أتصل به الآن فلا وقت أضيعه، أمسكت الهاتف واتصلت به:

- ألو أستاذ (طارق)؟

يرد علي متعجّبًا، ونبرته بها شيء من السعادة:

- مماذا؟! (إمي)! لا أصدق أذني! لقد قلقتُ عليكِ جدًا واشتقت لسماع صو..

أقاطع كلامه حتى لا أفتح المجال له من جديد:

- أستاذ (طارق) أنا بخير.. فقط كان تعبًا شديدًا اضطرني للمكوث في المنزل لفترة طويلة، والآن أصبحتُ بخير، كنت أريد الإذن منك لمعاودة العمل من جديد، إن كنت لا تمانع بهذا.

- (إمي)، أنت لا تحتاجين الإذن مني مطلقًا، هذه العيادة تحت سيادتك وأوامركِ دائمًا.. فقط أريدكِ أن تنسي كل ما حدث بيننا سابقًا وتغفري لي، فلنفتح صفحة جديدة كأصدقاء.

- سيدي (طارق) الفاضل، لم يدُر بنا شيء من الأساس لنفتح صفحة جديدة؛ فقد نسيت كل شيء ولن أسمح بشيء أن يتكرر أو يتغير، أنا من أريد أن أعتذر منك وأرجو أن تتفهم وضعي، شكرًا لك.

أغلقتُ الهاتف، ووضعتُ رأسي على الوسادة وأنا أشعر أني قاسية تجاهه، آسفة

يا (طارق) ولكن لا يوجد شيء بي تبحث عنه، ولا يوجد شيء لأعطيك إياه.

أغفو على أمل أن يبدأ يوم جديد ومشرق لي.

..

ظلت الأيام تأخذني معها يومًا وراء يوم وأنا أعيش في منزلي الجميل وحيدة كما اعتدتُ، وأذهب لعيادتي كطبيبة تداوي الجروح ولا تستطيع أن تداوي جروحها.

يرن هاتفي.. نظرت لرقم المتصل، إنه رقم مجهول! في نفس الوقت جاءني نداء طارئ، تجاهلتُ الهاتف وذهبتُ مسرعة لأرى الحالة.

كان طفلًا مستلقيًا على سرير الإسعاف يعاني من جرح عميقة في ساقه يظهر منها عظم كاحله، تلمّست ساقه لأستنتج أنه مصاب بكسر مضاعف في كاحله، جعلتُ باقي الممرضات يهدئنه وأعطيته إبرة مخدر حتى لا يشعر بالألم، كنت أراه يبكي بحرقة حتى يهدأ شيئًا فشيئًا ويغيب عن الوعي، سرحَت عيني فيه قليلًا وابتسَمتُ؛ فقد كانت نفس طريقة بكاء (فادي)!

يشتّت عقلي قلبي قائلًا له:

ماذا دهاكِ يا (إمي)، فلتركّزي في عملك ودعكِ من الخرافات.

أخذوه ليقوم بالأشعة والفحوصات اللازمة؛ لأتأكد أن كاحله مكسور ومصاب إصابة بالغة، ركّبنا له كاحلًا صناعيًا وقمنا بخيطة الجرح بنجاح والحمد لله، ولكن ما يحزنني أنه لن يستطيع المشي أو اللعب والركض كسابق، فما بال أهله إن عرفوا؟!

عدتُ لمكتبي حتى يستفيق الطفل من المخدر، نادتني السكرتيرة:

- دكتورة (إمي).. دكتورة (إمي).

أنتبه لها مستجيبة لنداءها:

- ماذا هناك يا (سارة)؟!

تقول لي مستغربة وهي تمسك بسماعة هاتف الاستقبال:

- هناك امرأة تبكي بشدة وتريد أن تكلم الطبيب المسؤول عن حالة الطفل الذي دخل منذ قليل.

آخذ منها سماعة الهاتف:

- ألو مرحبًا، معكِ الطبيبة (إمي) مسؤولة قسم الطوارئ.

لأجد امرأة تنفجر من البكاء وتقول لي بحرقة:

- ابني أيتها الطبيبة.. هل هو بخير؟ أرجوك طمئني قلبي عليه.

أقول مهدئة من روعها ولا أستطيع مواجهتها بالحقيقة:

- لا تقلقي أبدًا يا سيدتي إنه بخير، يمكنكِ أن تأتي وتطمئِنّي عليه، فهو بالتأكيد يحتاجك جانبه في هذا الوقت.

لتقول بصوت بكّاء يائس:

- ليتني.. ليتني أستطيع، لما تركته يبعد عن أحضان عيني ولما أصابه كل هذا، أرجوك.. قولي له أني أحبّه ولم أقصد أن يجريَ له ما جرى، وأنه سيصبح رجلًا يومًا ما ويدافع عن حق والدته.

لم أفهم شيئًا مما قالته، ولكن أشعر بسوء تجاهها ولحرقة بكائها، أرد عليها:

- بالتأكيد يا سيدتي، لا تقلقي سأخبره.

لأسمع عبر الهاتف صوت رجل يصرخ بغضب وبكلمات بذيئة مهينة لها، وصوت زجاج يُكسر وهيا تصرخ وكأن هناك حرب!

- ألو ألو، سيدتي ألو..

انقطع الاتصال.

أغلقتُ الهاتف متعجبة ومتأثرة بما سمعته، ما هذا؟! ماذا يجري مع تلك السيدة؟!

ذهبتُ له أطمئنّ عليه لعله يوضح لي سبب إصابته تلك الإصابة القاسية..

لازال نائمًا تحت تأثير المخدر، اقتربتُ منه ومسحتُ بيدي على رأسه وأنا أنظر له، أفكر:

ماذا يحدث معك أيها الصغير يا ترى؟! ماذا يفعل بك القدر؟!

يفتح عينه وتتحرك شفتاه قائلة:

- أين أمي؟ أريد أمي.
- اصص.. أمكَ لا تعلم أنك مصاب، إن علمت فسيُفطَر قلبها عليك، هل تريد أن تحزن أمك؟!
- لا.. لا أريدها أن تحزن أبدًا، لا تخبريها إذًا أرجوكِ.

تدمع عيني:

- أحسنت، أنت حقًا ستصبح رجلًا قويًا ومخلصًا، لن أُعلِمها طالما أردتَ ذلك.. قل لي كم عمرك أيها البطل؟

ليقول لي بكل براءة:

- أنا عمري عشر سنوات.. وأنتِ؟
- امم لن أقولَ لكَ إلى أن نصبح أصدقاء.
- حقًا! أيمكنكِ أن تصبحي صديقتي؟
- بالتأكيد، ولمَ لا؟

ليقول بحزن:

- لأني لم أمتلك صديقًا يومًا، كلهم يذهبون بسبب شجار أمي وزوجها دائمًا، أشكركِ لجعلكِ صديقتي.

تلتف يداه الصغيرتان حول رقبتي يحاول ضمي، لأحتضنه بحرارة وقلبي يفطر على حاله؛ ما ذنب هذا الطفل أن يفقد الحنان والرعاية من أهله في هذا العمر ولا يجد أحدًا يقف بجانبه في هذا الوقت؟!

قلت له بعد عناق جميل:

- انتظر هنا أيها البطل قليلًا، حتى آتي لك بصديقك الكرسي المتحرك الذي سيرافقكَ لفترة قصيرة حتى تتعافَ، لا تقف على قدميك إلى أن آتي.

ذهبت أجلب له الكرسي المتحرك وتأكدتُ من السكرتيرة أنها اتصلت على أحد أقربائه ليأتي ويهتم به.

عدتُ للطفل والابتسامة على وجهي، أمزح معه مسرعة بالكرسي المتحرك:

- ابتعدووا، ها هي سيارة البطل السريعة قادمة والذي سيجلس عليها بطل الأبطال.

كانت الضحكة تنير وجهه الصغير، حملتُه وأجلستُه على الكرسي، أنحنِي لمستوى عينه وأقول له بلهجته:

- كيف لم تخبرني عن اسمك وأنت صديقي؟

يضع كفه على رأسه قائلًا:

- أهه آسف كيف نسيت هذا، أنا اسمي (كريم).. وأنتِ؟

- أنا اسمي الطبيبة (إمي)، يمكنك مناداتي ب(إمي) فقط.

أقترب من أذنه قائلة بصوت منخفض:

- هل تسمح لي بأن أقول لك سرًا لا يعرفه أحد سوانا؟

يجيبني بنفس مستوى صوتي المنخفض:

- ما هو يا صديقتي (إمي)؟

لأقول له ما غاب عني منذ زمن وعلمتني إياه الحياة:

- هل تعلم أن حب الأم يساوي هذا الكون كله بما فيه من الفضاء والسماء والبحر وعدد أوراق الشجر، فلا تستهِن بهذا الحب أبدًا ودائمًا دافع عنه بما تملك من قوة.. هل تعدني يا (كريم) بأن تحب أمّكَ أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم، حتى أكثر من نفسك؟

حرك رأسه للأعلى والأسفل قائلًا بقلب صاف:

- أعدكِ يا صديقتي (إمي).

تأتي لي سيدة تقطع حوارنا الممتع قائلة:

- مرحبًا أيتها الطبيبة، أنا (فاطمة) جدة (كريم).

أصافحها مرحبة بها:

- أهلًا سيدة (فاطمة)، إن (كريم) بحالة جيدة ومستقرة الآن، ولكن يجب أن لا يمشي عليها لمدة ستة أشهر على الأقل حتى تلتئم الجروح وتستقر عظام كاحله، ولا تنسِي مراجعة المستشفى المذكورة في أوراق حالة (كريم)، ولا تقلقي؛ فبعد فتره سيتخلّى عن الكرسي المتحرك وسيتمكن من المشي عليها، ولكن للأسف لن يكون اتزانه كما سبق، سترافقه العصى حتى يعتاد على الاتزان من دونها.

تنظر للأرض بحزن وتقول:

- اااه.. كم عانى (كريم) كثيرًا، يا له من طفل مسكين، ما ذنبة هو بمشاكل والديه، إنهما أبوَين عديمان المسؤولية لا يهتمان سوى لمشاكلهما، يجب أن أعزله عنهما وأهتم به لأعيد له الحياة والحنان الذي فقدة معهما.

ألتقطُ أطراف أجوبة مما حدث مع (كريم) وما سمعته في اتصال والدته، لابد أنها مشاكل عائلية معتاد عليها والتي يقع فيها الأطفال ضحيه لحياتهم الفاشلة، لن أكون فضولية وأسأل عن التفاصيل.

أنحني لـ(كريم) مجددًا وأقول له بابتسامة:

- ها هي قد جاءت جدتك لتعتني بك حتى تطيب وتذهب لأمك بدون أن تعلم أنه أصابك أي مكروه، وتقول لها كم أنكَ تحبها، لا تُزعِج جدتك يا بطل، حسنًا؟

- حسنًا.

- هيا... إلى اللقاء، أراك قريبًا.

تأخذه جدته التي يبدو عليها الطيبة والصفاء بالكرسي المتحرك، وهو يلوّح بيده الصغيرة لي:

- وداعاً صديقتي (إمي).

حتى تختفي هذه اليد الصغيرة بين الناس.. أخذتُ شهيقًا وزفيرًا بعمق وأدعو له بالراحة والسعادة.

نظرتُ للساعة، لقد انتهى دوامي ولكن.. لم أعد أرغب في الذهاب للمنزل حيث أجد الوحدة والصمت تعمّ أركانه، خلعتُ البالطو وأخذتُ أغراضي من المكتب، وقعْت خروجي في سجل العيادة، لأركب سيارتي وأتجه للمنزل؛ فلا مكان آخر أهرب إليه.

أجد نفسي أوقف السيارة جانبًا على الطريق الجسر المعلق، وأنزل متوجهة لسوره الذي يطل على البحر، وكأني أحمل شيئًا ثقيلًا على قلبي أريد أن أرميه فيه..

أغمض عيني لأشعر بالهواء النقي الذي ينفُذُ بين خصلات شعري.. شعرت بنسمة البرد، ضممت نفسي أحاول تدفئتي..

لأتذكر تلك اللحظة التي وجدتُ فيها غطاء من الحنان والدفء يضعه (فادي) على كتفي، وعينيه التي قالت لي:

«(كنتُ أعلم أنك شعرتِ بالبرد، أنا بجانبك لا تقلقي، فلن أتخلى عنكِ

أبدًا مهما جرى)»

أشعر بدمعة دافئة سقطت على يدي، لتنهمر دموع مشتاقة له وأنا أتذكر وعوده وأتذكر كل لحظة شعرت فيها باهتمامه وحنانه الذي لم أجده في أحد غريب مثله، لا أستطيع نسيان رائحة عطره التي أحببْتُها أنفي، والتي اعتدتُ أن أستنشقها حولي دائمًا، كم أنت مجرم حقًا!.. لمَ ظهرتَ في حياتي وأنت تريد الرحيل؟!

حبًا بالله قد اشتقت إليك.. وعلى ثقة بأنكَ قد اشتقتَ لي..

وكما سمعت اليوم منك وأنا على ثقة بأنها رذاذ عطر كلماتك

حين سألتك «كيف سنلتقي؟»

فأجبتني: «دعي قلوبنا ترشدنا لأنفسنا»

***

الفصل الثاني عشر
(ليست كل الأمور يجب أن نفسرها بعقولنا)

يرن هاتفي مشتتًا لصراعي الصامت، أنظر للهاتف.. إنه نفس الرقم المجهول! أُجب:

- ألو من معي؟!

- واااه!! مرحبًا عزيزتي، أراكِ لازلتِ على قيد الحياة وتجيبين على اتصالاتك أيضًا! يا للرّوعة.

لأشعر بالخوف والقلق.. إنه ذلك الرجل... إنه (جاد)! يا الله ماذا يريد هذا الآن ألم أنتهي منه؟! كيف عرف أني لازِلتُ على قيد الحياة؟! لم يكتفي بما فعله بي!

- ماذا تريد مني أيها المجنون؟ اكتفيتُ.. اكتفيتُ حقًا منك، ألا يكفيك لعبًا بحياتي؟!

- ههه أنتِ لم ترَي شيئًا بعد يا حلوتي، لقد بدأت اللعبة للتو، هيا قولي لي أين أنتِ؟ فرجالي ذهبوا منزلكِ ولم يجدوكِ حتى تحت السرير، أين أنتِ مختبئة؟

أسمع صوت صراخ من الهاتف:

- لاا.. لا يا (إمي)، لا تخبريه عن مكانك سيقتلكِ، أرجوكَ دعها وشأنها..

صعقت والصدمة تحلّ أجزاء عقلي..

إنه...

إنه (فادي)!

أصرخ ببكاء أنادي غير مستوعبة ما يحصل:

- (ففادي)!!.. ماذا تفعل به أيها الحقير؟!

- أووووهه، يا لهذه الرومانسية! كم تأثرت حقًا، حسنًا يا جولِيت سأمهلكِ خمس دقائق، إن لم أجدكِ عند رجالي في منزلكِ فستجدين روح روميو تتمشّى مع روح ابني، سأرسلُ لكي صورة له الآن لتسرعي قليلًا؛ فمن الواضح أن الشوق سيقتلك عليه.

أرد عليه قائلة بحرقة وغضب:

- إن لمستَ شعرة واحدة منه فستندم! صدقني لن أرحمك أبدًا.

أستلم رسالة منه على هاتفي..

صورة (فادي)! معلقًا من يده والكدمات والدم في جميع أنحاء جسده، تبظهر عظام صدره وكأنه يحتضر!

يكمل كلامة بأسلوبه المستفز:

- (فادي)، حبيبتُك أخفَتْني جدًا! أنا آسف أيتها الطبيبة الفاشلة؛ فروميو لم يُرِد الإفصاح عن مكانك فأذقته مرارة الحب هههه.

قلتُ له بيأس وعجز مما رأيته والدموع تغرقني:

- حسنًا.. سآتي، ولكن أرجوك لا تؤذيه أكثر، أتوسل إليك.

أغلقتُ الهاتف وأنا في حالة من الهلع أشعر أني أحلم، أسرعتُ بركوب السيارة متوجهة إلى منزلي بسرعه جنونية، أمسك المقود بإحكام وأنظر للوقت وكأني أخوض سباقًا معه، لا أستطيع التفكير بشيء سوى أنني أريد أن أصل إلى (فادي) بأقصى سرعة قبل فوات الأوان.

يبدأ الزحام يتراكم أمامي، وكأنه يعلم أني في استعجال، أنظر ما سبب

هذا الازدحام الآن؟!

إنها لجنة تفتيش!!

أنزل مسرعة من سيارتي متوجهة نحو الشرطي أطلب منه النجدة بهلع، أحاول أن أخبره أني في حالة طوارئ؛ تستجيب الشرطة وتفسح لي الطريق بعد أن تعرّفوا على هويتي وعرفوا أنني طبيبة طوارئ.

وصلت منزلي ونزلتُ من سيارتي أسلّم نفسي لأولئك الوحوش، قيّدوا يديّ بلا رحمة ووضعوا على رأسي كيسًا أسود ليحجب رؤيتي، وأدخلوني سيارتهم المرعبة.

بعد قليل أشعر بالسيارة تتوقف، يفتحون الأبواب وينزلوني، الخوف والقلق يجريان في عروقي والرعب يتملّكني، لا أعلم أين أنا؟ وماذا سيفعلون بنا؟

نزعوا عن رأسي الكيس لتتضح لي الصورة شيئًا فشيئًا..

أجد (فادي) ملقًى على الأرض والكدمات يخرج منها الدم في كل مكان!

ينبض قلبي بقوة وتتعالَى صوت أنفاسي من منظره، أصرخ بأعلى صوت عندي وتصرخ دموعي معي تنادي:

- (فادي)!

أقاوم يدُ الرجال القاسية لأتجه إليه..

أفلتُ يدي من قبضتهم؛ لأرمي نفسي في أحضانه أتحسّس جسده المتضرر، أحملُ رأسه لأحضاني بعد أن تلوثت بدمائه ودموعي الغزيرة تترجاه بأن يفتح عينه وينظر لي.

- لا... لا أصدق! (فادي)، رُدّ عليّ أرجوك! أنا آسفة، آسفة حقًا، أنا السبب في كل ما جرى لك، لا أرجوك، لا تتركني أنت أيضًا بنفس الطريقة، أرجوك!

يفتح عينيه وهو فاقد للوعي، يعاتبني بإرهاق ودمعته الممزوجة بالدم

تزحف إلى لحيته:

- لمَ؟! لمَ سلّمتِ نفسكِ لهم، لمَ لَمَ تهربي يا (إمي)؟ ألم أنهكِ؟

- واو!! لم أعلم أني قد أجد المتعة في هذه الدراما، تكاد الدمعة تسقط مني.

يتوجه نحوه ويركله بقوة في ظهره المتضرّر، يصرخ (فادي) ألماً، لأمسك بقدمه أتوسل له بأن يتوقف:

- ها أنا أمامك اقتلني، أنت أردتَني أنا، أرجوك اتركه.

يضحك بسخرية وشر:

- هل تعلمين؟.. لقد غيرتُ رأيي، لن أقتلكِ بال..

يوجه عليه مسدسه:

- سأقتله هو أمام عينكِ لتشعري بمعنى المعاناة التي شعرتُ بها، وليشعر هو كم الخيانة مؤلمة، وكم نكران الجميل مُرّ الطعم.

يستعد لإطلاق الرصاصة وأنا متشبثة بأحضان (فادي) أغرقه بدموعي، أحاول أن أحمية في أحضاني، أتمنى لو تأتي الرصاصة بي بدلًا عنه، أتمنى لو أحمله وأختفي من هذا العالم المظلم، ولكن طاقتي لا تسمح للوقوف أو الصراخ فانهياري يسيطر عليّ.

وها أنا مستعدة لسماع صوت الرصاصة إما تأتي به أو تأتي بي..

لأسمع صوت رجل يحذره قائل:

- ألقي سلاحك يا (جاد)، فلا فائدة من قتله أو الهرب هذه المرة؛ فعدد رجالي يفوق عدد رجالك بثلاث مرات، إن قتلته فستكون أنت التالي، اترك سلاحك على الأرض وسلّم نفسك.

ليقول السيد (جاد) وهو يصرخ:

- لا.. لن أتركها تعيش بسلام، فقد دمّرَت حياتي هي ووالدتها، يجب أن

ينال كل منهما عقابه، لقد جعلوا حياتي تعيسة، فلمَ يعيشون هم في سلام؟ لمَ أنا فقط من يتألم؟ لمَ أنا فقط من أخسر كل شيء؟ حتى ابني الوحيد الذي يحمل ملامح وجهها الذي لا طالما كان يصبّرني عن غيابها، لمَ يحدث معي كل هذا.

يوجه المسدس اتجاهي وهو يقول:

- يجب أن أقتلها كما قتلتُ والدتها.

تتشنج أعصابي حتى لا أتفاجأ برصاصة في ظهري، أُغمض عيني بقوة خوفًا من الألم؛ لأسمع صوت الرصاصة تخرج من المسدس.

أفتح عيني وألتفت.. لأجد السيد (جاد) ملقًى على الأرض بعد أن أصابه مسدس الشرطة في قدمه.

سيطرت الشرطة عليه وعلى رجاله، وأسرعَت سيارة الإسعاف بنقل (فادي) إلى المشفى، أخذوه للعناية المركزة، كانت روحي تتبعه قبل جسدي.

أسرعوا بالسرير الذي يرقد عليه جسده إلى غرفة الطوارئ؛ ليدخلوا ويغلقوا الباب، لتتبعَه عيني ودموعي من بعيد حتى يختفي من أمامي.

أجعل الجدار لي سندًا وأضع رأسي عليه، أزحف جالسه على الأرض، فدموعي أصبحت ثقيلة جدًا عليّ، وألمي لم أعد أستطيع حمله.

حزينة على حالي، ولا أجرؤ في التفكير أني اعتقدت أنه رحل وتركني وأنه خائن، بل كانت كل دمعة تنزل من عيني اشتياق له، كان يتألم ويتعذب هو بدلًا مني، لا أتحمل عتاب قلبي لي.

كيف؟! كيف ظننتِ أنه قد يتركِكِ بعد ما فعله ليحميك أنتِ من الموت؟!

كيف سمحتِ لنفسك أن تنسيه ولو للحظة؟!

كيف وهو لم ينساك أبدًا؟!

خمس سنوات وهو يعاني من حبك، وبعد أن وجدكِ تسمحي لعقلك

القاسي بأن يفسر لكِ ويقنعك أن تكرهيه! آسفة يا (فادي) حقًا آسفة.

وبعد أربع ساعات من العتاب النفسي، يخرج الطبيب:

- من تدعَى ب(إمي)؟

أهب واقفة متلهفة:

- أنا.. أنا يا دكتور، هل (فادي) بخير الآن؟!

- نعم لقد استفاق، كوني مطمئنة؛ فقد كانت بعض كدمات وجروح استطعنا تدبر أمرها، ولكن لسوء الحظ لديه كسر في يده اليمنى، ولكن ما أستعجبه أنه ظل ينادي باسمك منذ أن عاد لوعيه، من الواضح أنكِ شخص له تأثير في حياته، يمكنكِ الدخول له الآن فحالته مستقرة.

- حسنًا يا دكتور، أشكركَ جدًا.

أدخل وعيني متلهفة لرؤيته، ولكن قلبي لا يجرؤ أن يلتقي به، أجلس بجواره لتلمس يدي عروق يده البارزة التي عانت من أجلي.

يفتح عينيه بإرهاق يبحث عني، حتى يجدني أمامه بدموع تطفو على جفني وابتسامة تكاد لا تصدق أنه بخير، يرفع يده يمسحها بأطراف أصابعه الباردة على جفني الذي أرهقته الدموع، يقول بإجهاد:

- لا.. لا تبكي.. كفاكِ بكاءً! من اليوم لن يكون هناك دموع ولا حزن.. فقط السعادة ستجدينها في كل مكان.

أبتسم وأضع رأسي على قلبه مغمضة بأمان وحامدة الله على سلامته وعلى وجوده جانبي.

يطرق أحدهم الباب ويدخل الشرطي قائلًا:

- آسف، من الواضح أني جئت في وقت غير مناسب، أعرّفكِ بنفسي؛ أنا النقيب (رجاء).

ينتابني الخوف، هل عرفوا حقيقة (فادي)؟ أعتدل في جلستي وأمسح دموعي.

أقول بتردد:

- أهلًا بك أستاذ (رجاء) تشرفت بمعرفتك، تفضل أيها النقيب.
- نودّ أن نطمَئِنّ على صحة السيد (فادي)، كيف حالك أيها البطل؟

يرد عليه (فادي) وأنا لا أفهم ماذا يعني بكلمة البطل:

- بخير والحمد لله أيها النقيب.

يقول النقيب ويطفئ فضولي:

- عندما بلغتَنا عن السيد (جاد) والذي كنا نبحث عنه بعدما عرفنا بتخطيطه لبيع كمية هائلة من الأسلحة، وأنه المتسبب في حالات قتل كثيرة، واعترفتَ لنا بجميع جرائمك معه، تحدث المسؤولون بشأن القواضي التي عليك، فقد قرروا مكافئة شجاعتك، وتوفيرًا لجهودنا وتسليم الفيديوهات والمقاطع الصوتية المسجلة لسيد (جاد) لإدانته بها، والكشف لنا عن مقرّه السري، قررَت أن تعفي عنك وعن جميع جرائمك وتبرير موقفك بأنكَ كنتَ تحت ضغط وتهديد من ذلك الرجل، ولكن.. يجب أن تتعاون معنا دائمًا وتبلّغنا بكل شيء تراه خارج عن القانون؛ لتكون مُخلصًا في وجه المسؤولين.

يرد عليه (فادي) وهو مبتسم وأنا منبهرة من الحديث الذي يدور بينهما:

- أنا تحت أوامركم سيدي (رجاء)، أشكركُم لما قدمتموه لي؛ فأنا سعيد جدًا بتعاوني معكم.

يكمل النقيب حديثه قائلًا قبل أن يذهب:

- آه، وليطمئن قلبكما، فلن يتعرض لكم (جاد) بعد اليوم؛ فالجرائم التي ارتكبها حكمَت عليه بسجن مدى الحياة.

أحمد الله على تخلصي من ذلك الرجل أخيرًا.

خرج النقيب وكلي دهشه أنظر لـ(فادي):

- فسّر لي ما حدث الآن؟!

- لقد أبلغتُ الشرطة بما حصل كله ليتابعوا تحركاتي ويعرفوا مخبأ السيد (جاد).

- أيها المجنون! لولا أن كانت الشرطة متعاونة معنا لكنتَ في السجن الآن ومحكوم عليك بالإعدام؟! ألم تخَف؟! ألم تفكر في كل هذا؟!

ينظر لي بصمت وينطق قلبه لعيني:

- لم أفكر.. ولم أخَف إلا عليك وقتها، لم يكن عقلي يفكر؛ فقد قام قلبي بكل هذا.

أسمع كلامه ويظل عقلي يكرره مرارًا، لأضم نفسي في أحضانه لأول مرة تنطق بها شفتي:

- أحبك.

قالتها! قالتها يا قلب قالتها!

أغلقتُ عيني وطوّقتها بذراعي لا أريد أن أتركها، لا أصدق مقدار السعادة التي أشعر بها، إنه يغلب الألم الذي أشعر به في جميع أنحاء جسدي، أغلقتُ عيني فقط أريد أن أشعر بتلك اللحظة، فقط أريد هذه الكلمة أن تظل في أذني لا أريد أن أسمع شيئًا بعدها.

***

الفصل الثالث عشر

(شكرًا لك)

آخر يوم لي بالمشفى بعد أن قضيتُ يومين فيها لأستعيد فيهما طاقتي، أمسكتني (إمي) بيدها الدافئة يدي لتجلسني، تخلع عني ملابس المشفى.

لا تستطيع عيني إبعاد النظر عنها، تستشعر جمالها وهي منشغلة بي، يحجب القميص التي تلبسني إياه عيني بالنظر لها لألبسه بسرعة وأكمل النظر بها، تنتبه (إمي) لعيني الثابتة عليها، فيحمرّ خدها وتقول بخجل واستغراب:

- ماذا بكَ يا (فادي)؟! يكفيك نظرًا!
- أشكرك.
- على ماذا؟!
- على إنفاذكِ لحياتي، على جعل عيني ترى شيئًا جميلًا في هذه الحياة بعد كل ما رأته من ألم وقسوة، لولا إسعافك لي في ذلك اليوم لما شعرتُ بجمال حبك ولما رأيت الحياة بعينِك، لما عرفت أن حبّ إنسانة صادقة مثلكِ بحد ذاته نجاح، فقلبي لم يبتسم يومًا إلا بعد أن أحبّك، ولم يعد ينبض بعد أن تركه الجميع إلا عندما أحبّك، صحيح أنكِ أتعبتِه كثيرًا، ولكن سرعان ما داويته باهتمامك وحبك له، عاد كقلب طفل رضيع لا يعرف معنًى للكره أو الألم.

أرى عينها تائهة بعيني، وأجد كف يدها الصغير يلمس أطراف شعر ذقني؛ لأغمض عيني وأشعر بالحنان والدفء الذي اشتقت إليه.

تلامس وجنتها وجنتي لأستنشق أنفاسها الدافئة، تقول:

- حمدًا لله على وجودك جانبي.

تبتعد فأضع يدي على رأسها أعيدها لموضعها، قائلًا لها بشوق:

- ابقِي.. ابقِي قليلًا أرجوكِ، لم تكتفي رئَتَيّ.

لنتُوه في عالمنا الخيالي وتمر الدقائق على أنها ثواني لا نشعر بشيء سوانا.

يدخل الدكتور ويخرجنا من انسجامنا، لنبتعد عن بعضنا بسرعة ويقول محرجًا:

- آسف.. من الواضح أنني جئت في وقت غير مناسب.

- لا لا، تفضل يا دكتور.

- حسنًا.. لن أطيل عليكما، أنا الدكتور (رامي) الذي يتابع حالتكَ، تفضّل هذه العصا؛ لتتكئ عليها حتى تتحسّن، ولا تضغط على قدمك اليسرى كثيرًا، إنها مصابة بشرخ طفيف في عظمة الساق لا نريده أن يسوء، أسبوعٌ على الأقل لتتعافى وتفك الجبيرة عنها وتسير عليها بشكل طبيعي، أما معصمُ يدك فيجب أن تهتم به جيدًا ولا تجهدها أو تحركها، عليكَ فك الجبيرة بعد أسبوع وتبدأ بتغيير الضماد كل يومين على الأقل؛ حتى يستعيد وضعيته وليتنفس جلدك قليلًا، اهتم بنفسك جيدًا يا أستاذ (فادي).. في أمان الله.

- نشكرك جزيل الشكر يا دكتور (رامي).

يخرج الطبيب وأمد لـ(فادي) يدي أسنده وأعطيه العكاز، نخرج متجهِين لباب المشفى، أسبقه بخطوتين لأُوقِف تاكسي وأفتح له باب السيارة ونعود إلى المنزل بعد يومين شاقين.

توقّف التاكسي أمام منزلي، أخرج من السيارة وإخراج (فادي) بتمهّل حتى لا يتألم، أدخل البيت من دون أن أجهد نفسي وأفتح الباب؛ فالقفل محطم والباب أصبح من دون مفتاح يعيقني بعد أن دمروه أولئك الأوغاد.

أفتح الأنوار لأجد البيت وكأن هبت فيه عاصفة قلبت حاله، أو أقيمت

فيه حرب، فأقول مصدومة من المنظر وبانزعاج:

- يا إلهي ما هذا! تبًا لكم أيها الأوغاد؛ دمرتم منزلي الجميل.

ليقول (فادي) وهو يشعر بالذنب:

- أنا حقًا آسف يا (إمي)، أنا من تسبّب لكِ في كل هذا، ففي هذا المكان أعطيتُك أنا ألما لتهديني أنتِ أملًا.

أرد على كلامة الغريب قائلة:

- ماذا تقول يا (فادي)؟! إلى متى ستشعر بأنك المذنب، إنه القدر يا (فادي) القدر، فلولا الألم الذي أهديتني إياه لما وجدتَ أنت الأمل، ولما وجدت أنا هذه السعادة الآن.

يبتسم مقتربًا مني يضع يده على رأسي، ويقول بحنان:

- حمدًا لله أنكِ سالمة ولم يمسكِ سوء.

تبتسم عيني له ويغيّر فمي الحديث مرتبكًا:

- بالتأكيد تتضوّر جوعًا مثلي.

- أهه نعم، أرجوكِ فطعام المستشفيات مروّع، ممَّ تصنعونه؟

لأشرح له وأنا متجهة للمطبخ:

- إنه طعام من الخضار أو اللحوم الطازجة والمسلوق، خالي من الملح والبهارات حتى لا يؤثر على معدة المريض ومناعته الضعيفة، ولكن الآن سأصنع لك بيد الشيف (إمي) طبقًا لن تجده بأحلامك، فكل من تذوّقه أصبح يناديني بشيف (إمي)، وليس الطبيبة (إمي).

يستريح (فادي) على الأريكة ويريح جسمه المنهك:

- لقد جعلتِني أشعر بالجوع أكثر.

أضع القدر من الماء على النار وأغرق به المعكرونة، وأحضر من الثلاجة بعض الجبن، وأنا مشغولة بتحضير المعكرونة أقول:

- سأذهب صباح الغد إلى السوبر ماركت؛ لأقتضي بعض الأغراض وأحضر قفلًا جديدًا لباب المنزل.
- حسنًا، سآتي معك.
- لا، ألم تسمع الدكتور ماذا قال، أرجوكَ ابقَى أنت مسترخيًا حتى تتعافى.
- ماذا لو تعرض لكِ السيد (جاد) من جديد أو أحد من رجالة، إن معارفه في المدينة كثيرة، لا لن تذهبي وحدك.

أتوجه له وأقول له بهدوء أطمئنه:

- صدقنِي لن أتأخر، أنا سريعة في التسوق، ولقد سيطرَت الشرطة عليهم ولن يجرؤوا على التعرض لنا من جديد.
- أرجوكِ لا تجعليني أقلق عليكِ.

أبتسم له قائلة:

- أعدك.

تعلّق عيني بعينه؛ فأقف أخفي الصمت:

- هيا؛ فقد انتهيتُ من تحضير الباستا، هيا لتتذوّقها.

أضع الباستا على الطاولة وأطباق الغرف، فيأتي (فادي) متحمسًا على الطاولة بعكازته يجلس على الطاولة.

فأجلس ونبدأ بالأكل..

أنتظر ردة فعله عن طعامي، فأجده يقول:

- همم لا بأس به، ولكنكِ وضعتِ نصف علبة الملح تقريبًا!

فأنظر له متعجبة، فأنا أتذكر أني وضعت كمية ملح مناسبة جدًا، أتذوّقها. فيضحك ويقول:

- وأخيرًا أكلتِ، كنتُ أمازحك فقط لأجعلك تبدئين بالأكل.
- أيها اللئيم، لقد أخفتني.

ونحن نأكل وجدتُها الفرصة المناسبة لأسأله عن السؤال الذي أراد عقلي إجابة له:

- (فادي).
- نعم؟
- من تلك المرأة التي كنت تحدق بها في المطعم قبل اختفائك، والتي قال النادل أنكَ ذهبتَ معها ذلك اليوم؟! وماذا حصل في هذا اليوم بالتحديد؟!

***

الفصل الرابع عشر
(ما غاب عن عقلي)

أجدُ تعابير الحزن على وجهه، وكأنني ذكرتُه بما لا يريد ذكره، فيقول:

- إنها (روز)، كانت واحدة ممن يعملُون معنا عند السيد (جاد)، كانت مخلصة له جدًا وأكثر شخص يثق به (جاد)، بعد أن خرجنا من متجر الملابس ذلك اليوم رأيتُ رجاله يجولون في شوارع المدينة، لم أكن أعلم أنهم مازالوا يبحثون عنا، بعدما أن دخلنا للمطعم، واطمأن قلبي أننا اختفينا عن أنظارهم وجدت (روز) على الطاولة المقابلة لنا تحاول أن تقول لي شيئًا لا أفهمه، وعندما نظرتِ لها بدأت بتمثيل أنها تغويني، لتغضبي وتقومي من على المائدة، فأتَت تحذرني قائلة:

- أهذه (إمي) التي كنت تحكي عنها دائمًا؟! هذه هي التي استحوذَت على كل ما في قلبك ولم تُبقِي لي شيئًا!.. على كلٍ هيا تعال معي للسيد (جاد)، سأقول له أني وجدتكَ بمفردك، إن رأى رجاله (إمي) على قيد الحياة لن يرحمها السيد (جاد) ولن يرحمك، وأنا أعلم كم أنت تحبها، عيناك تُفصِح كل شيء، وتعريض حياتك للموت أظهر هذا الحب الذي يجعلني أحترق من داخلي كلما رأيته.. هيا قم معي بسرعة قبل أن يدخل أحد رجاله إلى هنا.

قمتُ معها بدون تفكير، أمسكَت بيدي وخرجنا من المطعم لتبلغ الرجال أنها عثرتْ عليّ بمفردي، ركبنا السيارة، وبعد تحركنا وجدتها تمدّ لي في الخفاء بكيس به دم ألتقطه منها متعجبًا ما هذا؟! لتقول بصوت منخفض:

- إنه الدليل القاطع لك أمام السيد (جاد) على أنك قتلتَ (إمي).

لتقع عيني على معصم يدها؛ فأجد أثر الجرح الذي لم يلتئم بعد!

أنظر لها وعيني تدمع:

- لماذا؟! لمَ فعلتِ هكذا يا (روز)؟!

فتقول لي مبتسمة وهي تخفي معصم يدها:

- لعله شيء يعبر عن قدر صغير من حبي لك يا (فادي)، كنت أتمنى أن تحبني بنصف مقدار ما أحبَبتها به، ولكنكَ وجدتَ السعادة معها، ولن يستطيع أحد أن يسلبك هذه السعادة أبدًا، حتى لو كان السيد (جاد).

لم أستطع التكلم أو التعبير؛ فقد عجزَت كلماتي أمام إنسانة صادقه ونقية، ولكن أجبرَتها الحياة على التخلي.

تبتسم لي وتدير نظرها نحو النافذة..

- (روز)، اتركي العمل مع السيد (جاد) وسأؤمّن لكِ عملًا يليق بكِ؛ فأنتِ امرأة جميلة وقيادية، ولا تستحقين أن تكوني معه.

لا زالت تنظر نحو النافذة ولا تجيبني.. أقول لها بجدية:

- ماذا قلتِ يا (روز)؟

تلتفت وتنظر لعيني قائلة بهدوء:

- (فادي)، أنت لا تفهم ما يدور بيني وبين السيد (جاد)، إنه شيء معقّد، فقط عندما تنتهي أنت من هذه المهمة معه، خذ (إمي) واهرب إلى مكان بعيد لا يراك به أبدًا، ولا تقلق عليّ سأكون بخير ما دُمتَ أنت وهي بخير.

أوقف السائق السيارة ونزلنا إلى قصر السيد (جاد)..

دخلنا مكتبه أنا و(روز) وأربعة من رجاله؛ لأجده واقفًا يمد لي ذراعيه يستقبلني، يضمني بقوة ويقول بطريقة مصطنعة لا تليق على شخصيته المجرمة:

- أهه.. لقد اشتقتُ لك يا (فادي)، أين كنت مختبئًا يا عزيزي؟ فأنت لم تكن تتأخر في قتل أحد هكذا من قبل!.. ها؟

أرد عليه متلألئًا:

- للقد هربت مني، وككنت أبحث عنها.

فيقاطعني قائلًا بوجه مختلف:

- وهل وجدتها وقتلتها يا عزيزي؟

أنظر ل(روز) خوفًا منه أن يكتشف شيئًا ما، وأكمل له:

- نعم.. نعم، بالطبع يا سيدي، وها هي أخر قطرة دم كانت في عروقها.

يمد يده ليأخذ الكيس مني محدقًا به وهو ذاهب ليجلس على كرسيه:

- امم.. امم.. أحسنت.

فجأة ينادي بصوت عالٍ وكأنه يريد إخافتنا:

- (روز).. تعالي يا عزيزتي؛ فإني أشعر بألم حاد في ظهري، تعالي ودلكيه بيديك الناعمتين قليلًا.

تذهب (روز) لتدلّك له ظهره.

- أهه.. أحسنتِ صنعًا عزيزتي، نعم أكمل يا (فادي) هل رآك أحد؟

- بالطبع لا يا سيدي؛ فأنا تلميذك.

يمسك بيد (روز) يقبلها قائلًا:

- لقد اشتقتُ لكِ عزيزتي.

فتقع عينه على الجرح الذي في معصم يدها، لينتابنا الخوف والقلق، تسحب (روز) يدها بسرعة من قبضته لتخفيها..

فنجده يضحك بصوت عالٍ، ونحن على أعصابنا ماذا سيفعل؟!

يقوم من على كرسيه يضحك وهو ينظر لكيس الدم الذي بيده ذاهبًا خلف (روز) وهو يهمس في أذنها:

- يا للكِ من فتاة شقية، اشتقتُ للكِ يا (روز) وسأشتاق لكِ حتمًا.

يضع المسدس في ظهرها؛ فأركض نحوه مسرعًا؛ ليمسكني رجاله وأسمع الرصاصة التي جعلتها تركع على ركبتيها وهي تنظر لي مبتسمة.

أصرخ بكل قوة عندي:

- لاااااا، أيها المجرم الجبان الحقير، هذا ما تستطيع فعله، فقط أن تقتل الناس من ظهورها خوفًا من مواجهتها، كل ما أنت فيه هذا من جبنك وإجرامك، لهذا أنت لا تملك زوجة وأطفالًا؛ لأن قلبك ميّت عديم الرأفة، لا يستطيع أن يحب حتى نفسه.

ينظر لي وهو يصطنع التأثير قائلًا:

- يا حسرتاه، للأسف.. لم يربيك خالك رحمه الله جيدًا.

فيعطي لرجاله الأمر بتربيّتي من جديد ويذهب..

فقط هذا كل شيء.

فلم يرحمني عذابهم المتواصل لي وسؤاله عن مكانك، ولحسن حظي أني شعرت أن هذه الحيلة لن تجدي نفعًا مع (جاد)، وكنت أريد التخلص منه ومن جرائمه؛ فأرسلت للنقيب (رامي) كل المستندات والمعلومات قبل أن نذهب إلى قصره؛ فكنت أخطط لتدميره وتحرير كل من يعملون معه بالإكراه وأولهم (روز)، ولكن تأخرَت الشرطة حالما تأكدَت من رسائلي واستجابت لها.

- لا أصدق، أحدث كل هذا معك وأنا فقط كنت...

فيقاطعني ممسكًا بيدي قائلًا:

- أعلم، أعلم ما كنتِ تفكرين به، وأي شخص مكانك كان سيفكر بنفس الطريقة، فقد تركتكِ في المطعم بطريقة خاطئة، وأعلم أنكِ عانيتِ بسببي كثيرًا، وظننتِ أني تخليتُ عنكِ.. أنا آسف يا (إمي)، فلم أكُن أملكُ وقتًا كي أشرح لكِ كل هذا.

أسحب يدي التي لا تريد أن تبتعد عن يده الحنونة لآخذ الأطباق وأضعها في المغسلة هاربة من شيء، فألتفتُ له قائلة وأنا أحبس بكائي:

- في الحقيقة أنا التي يجب عليها أن تتأسف، فقد جعلتكَ تعاني الكثير، لم أفعل لك شيء سوى الألم، دائمًا ما أكون السبب في آلامك.

يخرج بعض الدمع من عينيها البريئة وهي تثرثر كطفلة، لأعرج نحوها وأمسح دمعها قبل أن يسقط على خديها، أعاتبها قائلًا:

- ألم أقل لكِ أنه لن يكون هناك بكاء بعد الآن، إن كنتِ تخافين على ألمي حقًا لا تجعليني أراكِ تبكين أبدًا، أرجوك.

يضم رأسي لصدره الدافئ يهدئني، فيقول:

- هل تعلمين أين المشكلة الآن يا (إمي)؟

- أين؟!

أقول لها مازحًا لأغيّر حالتها:

- أنني اشتقتُ للنوم على السرير؛ فقد كسر ظهري من النوم على الأرض.

أضحك على مشكلته قائلة:

- من حسن حظك أني أملك غرفتين في هذا المنزل، تستطيعُ النوم على سرير والديّ.

لأسمعه يقول بصوت خافت وهو منزعج:

- يا لحظي! لمَ لديها غرفتين؟! كنت أود أن ننام في غرفة واحدة.

- هل تقول شيئًا يا (فادي)؟

- ماذا؟! لا لا لم أقُل شيئًا.

لنضحك سويًا بعدما تداركنا فكر بعض.

- لا يا (إمي) كنت أمازحك، سأخرج وأبحث عن فندق قريب من هنا أبِيت فيه هذه الليلة.

- أرجوكَ يا (فادي) فلتبقى هنا حتى تتعافى، لا أرغب بالجلوس وحدي.

- لن أستطيع يا (إمي)، يكفيكِ اهتمامًا بي؛ فأنتِ بحاجة لراحة، سأتدبر أمر نفسي.

- (فادي) أرجوك، فالوقت متأخر ولن تجد تاكسي يوصلُك للفندق، وإن أردت الذهاب غدًا لن أمنعك.

- حسنًا، الليلة فقط.

ابتهج قلبي وذهبت لتنظيف الغرفة التي في نفس الطابق، فتحتُ باب الغرفة وأضأت الأضواء أتفقد كل ركن بها مشتاقة لهما، أتحسّس وسائدهما التي يغطيها الغبار؛ فأنا لم أفتح تلك الغرفة من يوم رحيلهما خوفًا من تذكرهما، أتحدث لها:

- كم من الوقت عمّ فيك الصمت؟! لابد أنك اشتقتِ لهما مثلي، سيصدر الصوت فيكِ اليوم وستعمّ السعادة فيكِ من جديد، فقط تحتاجين القليل من التنظيف.

بدأت أمسح غبار الغرفة لأرى طرف جواب ظاهر من درج أمي، أفتح الدرج فأجد دفتر مذكرات أمي وعليه جواب، حملته وخرجت (لفادي) بعدما انتهَت مهمة التنظيف:

- ها أنا ذا، لقد نظفتها لك قدر المستطاع.

- سلمَت يداكِ.

أتجه نحوه أمسك بيده أساعده على الوصول للغرفة، جعلتُه يستلقِي في وضعية مريحة لقدمه ويده المجبستان، أحضرتُ له غطاءً ثقيلًا؛ لأغطي به جسمه المنهك.

- تصبح على خير.

- وأنتِ من أهل الخير والسعادة حبيبتي، شكرًا لكِ.

أغلقت الأنوار لينام في هدوء وسبات عميق، وصعدتُ أنا لغرفتي، جلستُ على السرير ووضعت كتاب مذكرات أمي بجانبي مشتاقة لأن أعرف ما كتبته أمي طوال حياتها، أشعر بنعاس شديد لأستلقي على سريري وأنا أشعر لأول مرة باطمئنان ورضًى أخيرًا، فقد سمعَت جدران المنزل صوت شخص آخر غير صوتي.

***

وفي يوم باكر مشمس، استيقظتُ بنشاط غير معتاد من دون منبه وبدون ألم الرأس المزمن، دخلت الحمام لأخذ دش سريع وأستعد للذهاب إلى السوبر ماركت، حملتُ مفاتيح سيارتي وحقيبتي لأنزل وأفتح باب الغرفة التي ينام بها (فادي) بهدوء، ألقي عليه نظرة.

إنه متعمق في النوم من التعب، تركته غارقًا في النوم وخرجت من المنزل أركب سيارتي بعد أن اشتقت لها، أجد مؤشر الوقود منخفض جدًا:

- آه عزيزتي، لقد اشتقتُ لك، أنا آسفة لجعلكِ جائعة، سوف أتجه لأقرب محطة بنزين الآن وأطعمكِ.

أبدأ القيادة بمزاج جيد وأرفع صوت الموسيقى..

أجد بالصدفة صديقتي (سما) في نفس المحطة، أنزل من السيارة ألقي عليها التحية حالما تمتلئ سيارتي:

- (سما).. كيف حالك؟ هل سيارتكِ تتضور جوعًا أيضًا؟

- أوه حبيبتي (إمي)، لقد اشتقتُ لكِ، كنت أزُور جدتي اليوم، ولكن لم تتحمل سيارتي ذلك الطريق الطويل، تعطّلَت بعض الشيء ويقوم الميكانيكي بفحصها، ولكن انتظري.. ما سر هذه السعادة والنور الذي بوجهك؟!

تغمز لي مبتسمة:

- هل سارت الأمور مع دكتور (طارق) بشكل مختلف؟

- ماذا؟! وما شأن دكتور (طارق) في سعادتي؟!.. لا ليس هو السبب.

تقول والفضول يقتلها:

- من إذًا؟ أخبريني أرجوك؛ فأنا لم أعتد أن أراكِ هكذا.

أضحك على فضولها:

- حسنًا... حسنًا تمهلي، إلى أين أنتِ متوجهة الآن؟

- ليس لمكان، كنت سأذهب للمنزل حالما ينتهي فحص سيارتي.

- إذًا رافقيني للسوبر ماركت؛ سأشتري بعض الأغراض من هناك، ولأحكي لكِ ما تريدين معرفته في الطريق.

- حسنًا فكرة جميلة، من الواضح أن سيارتي ستأخذ وقتًا طويلًا، هيا بنا؛ فأنا متحمسة لمعرفة أخبارك.

ركبنا سيارتي متجّهين إلى هناك وأحكي لها من بداية اكتشاف ظُلمي لـ(فادي) حتى هذا اليوم..

- لقد ظلمنا (فادي) ظلمًا شنيعًا يا (سما).

- كيف؟!

- لم يكن ذلك الشخص الذي صورّه عقلي لي، فقد أنقذ حياتي مرتين،

وسيظل ينقذها بحبه الذي لا يفارق كل كلمة خرجت من فمه وكل نظرة ينظرها لي، دائمًا ما يورط حياته للخطر من أجلي، هل تعلمين يا (سما)؟ أنا لم أشعر بحب كهذا من يوم رحيل والديّ، لم أشعر بذلك الخفق في قلبي منذ وقت طويل، فقد كنت على يقين بأنه لن يحدث معي شيء كهذا أبدًا، لم يكن بقلبي أي شيء أعطيه لأحد ولا حتى لنفسي، ولكن (فادي) خلق بداخلي إحساسًا، أعطاني هو كل شيء ولم ينتظر مني أن أعطيه، هل تعلمين أن هذه المدة التي كنت أحاول أن أكرهه فيه، كانت يتألم هو حبًا لي، فقد وجده ذلك المجرم (جاد) وعذبه حتى ينطق بموقعي بعد أن علم أنه لم يقتلني ويحميني منه، ولكن أحمد الله أن الشرطة أمسكت به قبل أن ينهي حياة أحد منا بجنونه.

- يا الله! ما هذا الرجل المجرم ماذا يريد منكما؟! تبًا له، الشرطة ستؤدّبه وسينال عقابه بالتأكيد.. ولكن هل (فادي) يمكث في منزلكِ الآن؟

- نعم.. إنه نائم في غرفة والديّ الآن.

- انظري يا (إمي)، أعلم أنه شخص جيد وأنقَذ حياتك مرارًا، ولكن يجب أيضًا أن تحذري منه، إنه مجرم لا تأمنيه.

أبتسم قائلة لها:

- لازلتِ لا تفهمينه جيدًا.. أنا قد أشعر بالخوف من كل البشر على الأرض عدا (فادي)، قد أشك في جميع البشر على الأرض عدا (فادي)، أشعر بالحزن والوحدة في كل لحظة أعيشها عدا اللحظات التي أقضيها معه، ليس كل ما نفعله يعبر عما في دخلنا؛ فهناك أشياء قد نفعلها مجبرين، وكان (فادي) ضحية قدر قاسي، ستفهمين كل هذا إذا نظرتِ بعينه لمرة واحد، فهي التي ستخبرك بمدى صفاء وصدق قلبه، وكأن داخله طفل لا يعرف للقسوة معنى.

- أتمنى أن يكون ما تشعرين به صحيحًا وعلى حق يا (إمي).

أوقفتُ السيارة ونزلنا إلى السوبر ماركت:

- ولكن هل تعلمين؟ ما لا يزلك عقل يإلى اليوم، ويتردد باستمرار؟!

- ماذا؟!

- عندما ذكر (جاد) أمي وهو يوجه نحوي المسدس، لقد قال أشياء غريبة لا أستطيع تعقّلها، قال أني دمرت حياته أنا وأمي وابنه الوحيد الذي يحمل ملامح وجهها الذي كان يصبّره عن غيابها، وأشياء غريبة أصبح يقولها، ما علاقه أمي به؟! ومن يكون ذلك الرجل؟!

- آهٍ يا (إمي)، لا تشغلي بالك إنه رجل مجنون لا يعرف ما يقول، فما علاقة أملكِ به، إنها متوفّية رحمها الله.

- صحيح، رحمها الله.. هيا يا (سما) دعينا نتبضّع بسرعة، لا أريد أن أتأخر.

اشتريتُ الخضروات والفاكهة الطازجة وقفلًا جديدًا لباب منزلي، لم أنسى ضماد (فادي) بالتأكيد، أوصلتُ (سما) إلى المحطة مرة أخرى لتأخذ سيارتها، ودّعتها وتوجهت للمنزل..

ركنتُ سيارتي في موقفي الخاص، ودخلت أبحث بعيني عن (فادي)؛ لأجده جالسًا على الأريكة وكأنه منتظرٌ شيء.

- مرحبًا لقد عدت، هل تأخرت عليك؟

فأجده عابسًا لا يجيبني؛ لأجلس بجواره:

- ما بك (فادي)؟! همم حسنًا أعرف أني تأخرت، فقد قابلتُ صديقتي هناك وأوصلتها للمنزل.. أنا آسفة.

مازال صامتًا..

- امم حسنًا، انظر؛ لقد أحضرتُ الدجاج والخضار لأطبخ لك اليوم طبقًا سيردّ لك عافيتك بإذن الله.. لا زلتَ لا تريد التحدث؟!

- لقد جعلتني أقلق عليكِ يا (إمي)، وأنا عاجز لا أستطيع أن أبحث عنك أو أذهب معكِ.

- أنا آسفة حقًا، لم أتعمد أن أقلقك عليّ، هيا سأقوم لأغير ملابسي وآتي لأعدّ لك الطعام.

- لا يا (إمي)، لستِ مضطرة أن تتعبي نفسك، فلنطلب أي شيء من الخارج.

- ماذا؟! لا مستحيل، انسَ، سأعد أنا طعامًا صحيًا بيدي؛ لتتعافى بسرعة.

أصعد لغرفتي أبدل ملابسي، ليلفت نظري كتاب مذكرات والدتي الذي وضعته جانبي، ألتقطه لأفتح أول صفحة فيه..

***

الفصل الخامس عشر
(قلبي لم يكن لي يا ابنتي)

هنا أسطّر سطور حياتي وكل شعور أحسسته، لم يكن في حياتي الكثير وكنت أرضى بكل ما أعطتني الحياة مهما كان صغيرًا، وعندما ترغمني على شيء لا أرغبه أبتسم لها وأنا أصرخ من داخلي، فأنا لا أذكر أنني أخترت شيئًا بحياتي سوى قلبي، نعم أحببتُ وهو ما كان يجول حولي لتقويتي، كان الوحيد من يهدئ صراعي الداخلي ويعطيني يده للبدء من جديد، ولكن..

من يبقى على حاله! لقد أبعدتنا المسافات الخائنة والقرارات الحياتية، اضطررت أن أنتقل لمدينة أخرى بعيدة، لم أودّعه ولم يودّعني، ذهبت صامتة بذكرياتي أخفي ما بداخلي، فكم هي مؤلمة لحظات الوداع، لم أرد أن أرى في عينه أنني تخلّيتُ عنه وذهبت؛ فما أشعر به يكفيني، ذهبت مع والداي إلى المدينة الكبرى والتي يملأها الصخب واللوائح الإعلانية على الطرقات بعد أن حصل أبي على عقد عمل جيد هناك، وتعتبر فرصة لا تعوّض بالنسبة له، والسعادة التي وجدتها في عين أبي جعلتني أتنازل عن حق سعادتي، أستيقظ كل يوم صباحًا معه أعد له الفطور وألقي عليه التحية من على الباب بابتسامة وراءها ندبات مؤلمة.

ماذا كان سيحدث لو كنتِ هنا يا أمي؟! هل كان حالنا أفضل؟ كنت على الأقل استطعت أن أضع رأسي أتكئ عليك رامية حمولي، أو أحكي لكِ بدلًا من الكتابة على تلك الأوراق الباهتة.. لقد اشتقتُ لكِ.

***

يا ترى أين أنت يا قلبي الآن وماذا تفعل؟ بالتأكيد تظن أنني تخليت عنك وعن حبنا وعن تلك الأيام الجميلة، هه أتذكر ذلك اليوم عندما

قطفتَ وردة من بستاننا لتقدمها لي بالنيابة عن شخص أشرت عليه من بعيد، مع أنه لم يكن أحد سوانا على الطريق، أتذكر تلك الرسائل التي كنت تبعثها إلي خلسة مع طائرك الجميل الذي لم أعرف اسمه إلى الآن؟ يا ترى هل سنتقابل مجددًا؟!

اصطحبني اليوم أبي معه لحفل أقامه مدير العمل، كنت بكامل زينتي، وقال أبي حينها وهو يضع يده على رأسي بحنان:

- حبيبتي، فليحميكِ الله من أعين البشر ومن عيني.

لم أكن أحب أحدًا بمقدار ما أحببت والدي فعلًا، كان دائمًا يشعرني أنه بخير وسعيد؛ ليبقيني مرتاحة، ولكن ما كان يحصل داخله عكس ذلك دائمًا..

عرفني على مدير الشركة السيد (رأفت):

- مرحبا عزيزتي، ما شاء الله فليبارك الله لكَ فيها، لقد جمعَت جمال نساء العالم، بالتأكيد هذا الجمال من والدتها، آه صحيح أين زوجتك يا (عادل) لم نتشرف بها بعد، هل هي أجمل من ابنتك لهذا تخفيها عنا؟

- لا يا سيدي، ولكن أمها فليرحمها الله ويسكنها جناته، توفيت منذ زمن بعيد.

- أنا آسف حقًا يا (عادل)، لم أقصد أن أذكّرك بما لا تريد تذكره، على كل لأعرّفكِ يا أميرتي على ابني (جاد).

يمد يده ينتظر سلامي، لم أرغب بمصافحته، ولكن لا أريد أن يكون شكل أبي سيئًا، صافحته:

- مرحبًا سيد (جاد)، سررتُ بمعرفتك.

- أنا السعيد برؤيتك.

كان يمسك بيدي بقوة وكأنه لا يريد أن يفلتها، ليقول أبي مشتتًا الوضع:

- هيا دعونا نبدأ الاحتفال.

ليذهب الجميع ويلقي السيد (رأفت) خطابه للحضور، وأبي منشغل في الأحاديث مع أصحاب العمل، وأنا جالسة على الطاولة بمفردي أتأمل تزيين الاحتفال وبِدَلِ الحضور التي يبدو عليها الغلاء، كيف يعيش هؤلاء البشر في تَرَفٍ دائم هكذا!

يأتي (جاد) مشتتًا حديثي مع نفسي:

- أتمنى أن لا أكون أزعجتك.

- لا.. لا، بالعكس.

- لقد مررتُ بالصدفة فوجدتكِ جالسة بمفردك، هل أزعجكِ أحد؟ فلا يجب على فتاة جميلة مثلك أن تجلس بمفردها أبدًا.

- هه شكرًا لك، لا ولكن أحب أن أظل وحدي دائمًا؛ فالوضع لا يشكّل لي مصدر إزعاج.

- حسنًا، بصراحة أنا لم آتي؛ لأني وجدتكِ جالسة وحيدة بالصدفة، بل كنت أترقبكِ من بداية الاحتفال، وكنت أنتظر هذه اللحظة، وعندما وجدتكِ جالسة بمفردك انتهزت الفرصة للقدوم والجلوس معك.

- ولماذا قمتَ بهذا؟!

- لقد خطفتِ بصري وأنتِ تنزلين من سيارة والدك، لم أكن أعلم أنك ابنة السيد (عادل)، وعندما عرّفني عليك والدك طِرتُ من الفرح وأصابني توتر غريب، فأنا لم أعتد مصافحة فتاة جميلة مثلك.

- شكرًا لك، ولكن أعتقد أنك تبالغ بعض الشيء.

وقمتُ هاربة لأبي أتحدث معه، كان واقفًا مع السيد (رأفت).

- عزيزتي تعالي، انظري ماذا قال السيد (رأفت).

- انتظر يا (عادل) لا تحرق عليّ مفاجئتي لها.

- ماذا؟! ماذا هناك يا أبي؟!

- بصراحة يا ابنتي أستاذ (رأفت) يريد أن يعيّنك سكرتيرة أستاذ (جاد).

- ماذا؟! ولكن...

ينظر لي أبي أن لا أقول شيئًا سوى الموافقة:

- أشكرك جدًا، هذا شيء رائع.

ومن هنا بدأتُ عملي في شركة السيد (رأفت) كسكرتيرة لـ(جاد)، كان دائمًا يعبر لي عن إعجابه بي، لا أنكر أنه شخص وسيم وأنيق وذو مكانة، وكان يتعامل معي دائمًا برفق وشهامة، ولكن قلبي ممتلئ بحب شخص آخر ولا أستطيع نسيانه إلى الآن..

كان أبي سعيدًا جدًا أنني قبلت بالعمل معه في نفس ذات الشركة، وكان الأستاذ (رأفت) يحترم أبي كثيرًا، وذات يوم جاء أبي يقول:

- عزيزتي فلتُحضّري مائدة شهية اليوم؛ فالسيد (رأفت) وابنه قادمان اليوم للعشاء معنا.

- لماذا؟! وما المناسبة؟!

- هيا يا ابنتي ولا تسألي أسئلة سخيفة، طلبا هذا الشيء فهل أرفض؟

جاء (جاد) وأبوه وقدم لي بوكيه ورد أنيق، يصافحني وعينه لا تنزل من عليّ، لا أعرف ما خطبه، آخذه منه وأضعه جانبًا، وأذهب لأضع الطعام على المائدة، وبعد أن أكلنا أعددتُ الشاي وجلست، ليبدأ السيد (رأفت) بالتحدث قائلًا:

- بصراحة يا أستاذ (عادل) نحن لم نأتي اليوم عبثًا، ولكن جئنا اليوم لنطلب يد ابنتك (نور) لابني (جاد)؛ فمن يوم أن رآها قُلِب حاله.

أهب واقفة لا أستطيع التحدث احترامًا لأبي، لأذهب إلى غرفتي وأغلق الباب..

- هل أزعجنا الآنسة (نور) بشيء؟!

- والله يا أستاذ (رأفت) لا أعلم ما يجب قوله، ولكنكم فاجأتمونا بذلك الموضوع، لو قلتَ لي قبلها لكنت درّجت لها الموضوع، وعلى كلٍ انتظرني يومين، سأتحدث معها وأعرف جوابها.

- حسنًا يا أستاذ (عادل) لا مشكلة، ونتأسف إن أزعجناكم، عمتَ مساءً.

يؤلمني قلبي يسأل، ألن أراكَ مجددًا؟! هل فقط ستبقى في ذكراي؟! ألن تراك عيني؟! قل لي أين أنت؟! ابحث عني أرجوك، لا تتركني..

صباح يوم جديد أضع الفطور على المائدة لأبي، أشعر بما يريده، يمسك بيدي يخاطبني:

- ابنتي (نور)، أنتِ ما تبقّى لي في هذه الحياة بعد والدتك، أرجوك أريد أن يطمئن قلبي عليكِ قبل أن أذرف أنفاسي، إن (جاد) شخص جيد وذو مكانه وسيستطيع إسعادك، أرجوك لا ترفضي ما تجهليه، يجب أن تمضي قِدَمًا في حياتك.

- ولكن يا أبي، في قلبي شخص آخر.

- وأين هو يا عزيزتي؟ هل جاء وطلبكِ مني؟ هل سعى لأن يكون معكِ؟ هل هو موجود الآن أم في مخيلتك وذكراك فقط؟

- سأنتظره يا أبي مهما طال الوقت، ومهما ابيَضّ شعري، يكفي أني لم أودعه وتركته في حيرته وسؤاله عني الذي لن يجد أحدًا يجيبه له.

- فليحميك الله يا ابنتي ويهدي لكِ بالك ويرعاك.

..

كبر أبي ولم يعد في سن يسمح بأن يعمل، أصبحتُ أعتني به وأرعاه، أنقله للسرير ومن السرير للحمام:

- هيا أبي، افتح فمك وتناول هذا الطعام اللذيذ.
- لا أريد يا (نور).
- ماذا بكَ يا أبي؟! لمَ أنت حزين هكذا؟!
- أشعر أنني لم أئِنّ لكِ شيئًا عند مماتي، أخاف عليك من الدنيا يا (نور)، وأنتِ وحدكِ لن تستطيعي مواجهتها.
- لا تخف يا أبي؛ فابنتك قوية، فليُطِل الله في عمرك.

كان يزوره السيد (رأفت) وابنه كل فترة ليطمئنوا على حالته، أخاف كل يوم أكثر من اليوم الذي قبله؛ فحالة أبي تسوء كل يوم أكثر من ذي قبل، لا تتركني يا أبي فلم يعد لي أحد في هذه الدنيا سواك..

ترك والدي وصيته قبل أن يطبق عليه القدر سُنّة الحياة، كتب فيها:

(ابنتي العزيزة (نور)، يا نعمتي وثوابي في هذه الحياة، أعلم أني أقسو عليكِ في بعض الأحيان، ولكن وحده الله يعلم أنه من حبي وخوفي عليكِ، لن أوصيك بحياتك، لقد تركتكِ وأنا أعلم أني تركتُ فتاة من حديد لن تؤثر عليها الحياة بمصاعبها، ولكن يا ابنتي.. حتى الحديد ينصهر، لا أريدك أن تعيشي وحدكِ؛ فمهما بلغت قوة الإنسان يحتاج لأحد يتكئ عليه ويشكو له، يحتاج للاهتمام والحنان، فوصيتي لكِ يا ابنتي أن توافقي على الزواج من (جاد)، إنه إنسان صالح يحبك وسيرعاكِ في غيابي، كنتُ أتمنّى أن أمشي معكِ على سجاد زفافك وأسلّم يدكِ ليده، ولكن... ليس كل شيء المرء يريده في هذه الحياة يجب أن يكون.. أحبك)

لم أُحِب قلبي على أسئلته وخطابه القاسي، فلا شيء أعترضُ عليه أمام وصية أبي، تم زواجي من (جاد)، أعَدّ لي حفل زواج كبير وأنيق وسافرنا إلى

فرنسا، لم أكن أشعر بأي شيء لا بفرح ولا بحزن، وكأن قلبي توقف عن الإحساس، فقط أفعل ما يجب أن أفعله.

كان (جاد) يحاول بقدر المستطاع أن يعطيني حبًا واهتمامًا وأن يغيّر حالتي للأفضل ولكن بلا جدوى:

- (نور)، أرجوكِ قولي لي ما بكِ، فلن يحبكِ أحد أكثر مني، قولي ماذا تريدين وسأفعل كل ما يحلو لكِ، سأزرع لك الأرض وردًا وأجعل بيتنا من ذهب، فقط اطلبي.
- لا أريد منك شيئًا سوى تركي وحدي، لا أرغب في شيء، أرجوك اتركني.
- لمَ وافقتِ عليّ إن كنتِ لا تريدينني؟!
- كانت هذه رغبة أبي.
- قد تكون رغبة أبيك صائبة، حاولي أن تحبيني يا (نور)، صدقيني لن أخذلك أقسم لك.

أخرجُ ما في قلبي منهارة:

- أحاول... أحاول يا (جاد)، ولكني لا أستطيع، صدّقني لا شيء بيدي، لا يوجد شيء أعطيك إياه، لقد نفذ الحب بداخلي، أنا آسفة حقًا يا (جاد) لا ذنب لك بأن تكون حياتك تعيسة بسببي، سامحني.

يضمني له يهدأني:

- لستِ بحاجة لفعل شيء، ولا أطلب منك أن تعطيني حبًا، يكفيني أن أحبك كما أنتِ وكيف كنتِ ومهما كانت حالتك، لا تبكي أرجوكِ، أنا بجانبك.

كان يتحملني كثيرًا ويحتمل حالتي، ولكن مرض الذكرى يؤذيني، لدرجه أني أتخيّله أمامي، أراه في وجه (جاد)، هو حبي الذي لا أستطيع أن أنساه..

في يوم أسود دخل (جاد) غرفتي وكأنه في حالة سُكر شديدة، يقترب مني ورائحة أنفاسه تكاد تخنقني، أبتعد:

- ما بكَ يا (جاد)، ماذا تفعل، هل جننت؟!

- نعم، جننتُ من يوم أن التقيتُ بكِ، أخذتِ عقلي وقلبي وكل ما أملك، لمَ لم تحبيني كما أحببتُكِ يا (نور)؟! لقد أحببتُكِ كثيرًا وأكثر من أي شيء، لماذا تكرهيني؟!

- أنا لا أكرهك يا (جاد).. ليس لديّ ما أعطيك إياه، أرجوك ابتعد.

يصرخ غاضبًا لأول مرة:

- لن أبتعد! ليس في كل مرة تطلبي مني نفس الطلب، لقد سئمتُ وتحملتُك كثيرًا، لم أعد أحتمل أكثر!

- (جاد) أرجوك، لا تجعلني أكرهكَ فعلًا.. (جاد).

- أنتِ زوجتي ويحل لي بفعل أي شيء معك، لن تمنعيني، فهذه أبسط حقوقي، أتفهمين؟!

يفعل (جاد) فعلته.. ليضع ثغرةً كبيرة بيني وبينه لن تزول.

..

يستفيق (جاد) من غيبوبته ويعود له وعيه يحاول تذكر فعلته، يجدني مستلقية جانبه منهارة على حياتي وما فعلتُه لنفسي، يمسك رأسه نادمًا على فعلته، يخبط على غبائه وتصرفه؛ ليقوم مسرعًا هاربًا من الغرفة..

هل أنا أعاقب نفسي؟ أم الحياة تعاقبني؟! أم أنا لم أعد أكترث لسعادتي؟! تخليت عن الشيء الوحيد الذي تمنّيتُه في هذه الحياة، تخليت عن حبنا الصادق لأذهب إلى عذابي ووحدتي، تبًا لي ولكَ وتبًا على الجميع..

جاء صباح يوم جديد يحمل الأزهر راكعًا على قدميه يقول بندم:

- سامحيني يا (نور)، أرجوك، أقسم بحبك أني لم أقصد فعل تلك الفعلة القذرة، لم أكن في وعيي ولم أشعر بشيء، وكأن كان بداخلي وحش سيء خبيث، لا أريدك أن تحبيني، ولكن أرجوكِ لا تكرهيني.. أرجوكِ أعطِني فرصة أخيرة؛ لأصحح ما فعلت، أرجوك..

كسر شيئًا داخلي، ولم أعد أرى ألوانًا في حياتي بعد اليوم، ولكن.. يجب أن أتخطى الموضوع؛ فهو في النهاية زوجي وأنا من وافقتُ بأن يكون..

قمت أحضّر الغداء، نأكل سويًا بدون شهية، صدقًا لا أشعر بطعم الأكل وكأن كل أصناف الطعام هي واحدة بفمي، أنظّف المنزل، أغسل ملابسه التي لا أطيق رائحتها، أكوِي بدله، وعندما يأتي ليلًا، أكون زوجة مطيعة له ولرغباته..

وها هي حياتي لا شيء مبهر أكتبه في مذكراتي، حتى جاء اليوم الذي أذهب فيه لطبيب ليقول لي بأني حامل.. لم تتأثر مشاعري كثيرًا، وكأن الطبيب لم يقل لي شيئًا، أما (جاد) فجُنّ جنونه وكأن العالم لم يعد يسعه، جاء يقبّل يدي يشكرني على تلك النعمة التي قدمتُها له وأنه لن يخذلني وسيظل العمر كله يخدمني ويطيع أوامري أنا وطفلَه..

كان (جاد) يشعر بكل شيء، يشعر بكرهي له وببؤسي وبالفراغ الذي بداخلي، مهما حاول جاهدًا أن يجعلني أبتسم ويخرجني مما أنا فيه، فمشاعري ليست ملكي ولا أتحكم فيها..

ها أنا في شهوري الأخيرة أحمل طفلًا على عاتقي، لمَ أشعر بهذا الشعور الذي لا أستطيع وصفه؟! لا أشعر بشغف الأمومة، ولا بخوف المسؤولية، لا أشعر بأي شيء سوى أنني أريد التخلص منه ومن الألم الذي أشعر به، وكأنه ليس طفلي..

ينقلني (جاد) إلى أفضل مَشفَى بالمدينة الكبرى لتتم ولادتي هناك، تُدخِلُني الممرضات إلى غرفه الولادة؛ ليدخل الطبيب المسؤول عن ولادتي..

إنه!.. (بدر)؟!

نعم كان حب حياتي وسبب سعادتي هو المسؤول عن ولادتي، يبتسم قلبي في شدة ألمي، أصرخ ألمًا فيصرخ قلبي فرحًا..

يحمل (بدر) طفلي الذي تمنيتُ أن يكون منه، كان ينظر لي وعلى جفنه دمع يشكو حالته، نظر لي نظرة مؤلمة تحمل فيها كل معاني العتاب والكره..

يعطي الطفل لـ(جاد) يهنئه ويخرج من الغرفة هاربًا بدموعه وقهره..

لا تذهب أرجوك يا (بدر)؛ فأنا أحتاجك الآن أكثر من أي وقت مضى..

أستفيق من تعبي لأجده أمامي يسألني وكأنه لم يلتقي بي من قبل وهو يقيّد حالتي على ورقه:

- كيف صحتكِ يا أستاذة (نور)؟ أتمنى أن تكوني بخير، يجب أن تكثري من شرب السوائل المغذية مثل العصائر الطازجة والمشروبات الساخنة.

يهب (جاد) واقفًا:

- سأذهب وأحضر لها كل ما تقوله يا دكتور، سأحضر طعامًا ومشروبات وعصائر وكل ما تحتجينه عزيزتي، لن أتأخر.

يخرج (جاد) وينتهي (بدر) من تقييد حالتي، يلتفت ليخرج فأمسك بيده:

- (بدر).
- .....
- أرجوكَ اسمعني، أعطنِي فرصة أشرح لك العذاب الذي بداخلي..

يلتفت لي ويطلق رصاص كلماته:

- وأنا.. لمن أشرح؟ لمن أشكو؟ لمن أحكي له عن انكساري وألمي؟ من يرى النار التي بداخلي وأنا أحمل طفلك بين ذراعي.
- (بدر)، أقسم لك بحبنا أن كل شيء حدث وأنا لا أعِيه، لم يقرر قلبي ولم يوافق على أي شيء من هذا، يكفي ما أشعره من عذاب من يوم رحيلي، لا تزِدْني وجعًا.

يسألني بدموع:

- لماذا؟! لماذا تركتِني وذهبتِ هكذا يا (نور)؟! لماذا طعنتِني في أعز ما أملك، جرحتِ قلبي الذي خُلقَ من أجلكِ وفيكِ كان يحتمي، لقد أحببتُكِ بصدقٍ وفعلتُ المستحيل لأكون صالحًا لأن أتقدم لأبيك وأنتِ مرفوعة الرأس، كنت كل ليلة أنامها أحمد الله على نعمة وجودك بحياتي، كنت أحلم وأخطط كم سأكون أبًا جيدًا، وكم ستكونين أمًّا صالحة.. تبًا لكِ ولحبك يا (نور).

يذهب ويترك حربًا قائمة بداخلي، لأغمض عيني أدعو الله بأن يرحمني من كل هذا:

- يا الله كن معي وبجانبي، يا الله لا أملك سواك الآن، اجعله يسامحني ويغفر لي كل ما سببتُ له من ألم، واجعل قلبه يرأف لحالي فإني أحبه.

انتهت أيامي بالمشفى من دون أن أرى وجه (بدر) مرة أخرى، عُدتُ إلى المنزل مع(جاد) وهو يحمل طفله ومنشغلٌ به انشغالًا تامًا يداعبه ويضحك معه ويغني له، لأصعد أنا إلى غرفتي أكتب ما أكتبه هذا.

كنت تعيسة لغيابه، وعندما رأيته عينِي.. سأجن من التفكير، لا أستطيع أن أتوقف بتكرار كلامه، أرجوكَ يا (بدر) لا تتخلّى عني للمرة الأخيرة، اشعر بي، التمس لي الأعذار؛ فأنا لم أجد أحدًا بجانبي.

أنظر لنافذة أتخيل طائر (بدر)، أهب واقفة للنافذة، أفتحها.. أتحسّس الطائر... أشكو له.. يدخل (جاد) يعطيني الطفل:

- حان موعد طعامه، أطعميه وعيديه لي.

آخذه منه، متعجبة أشعر بشيء غريب في (جاد)، لا يتعامل معي بلطف كعادته كأنه يريد أن يقول شيئًا، ولكن خرج صامتًا.

لا أشعر بذلك الطفل حقًا، لا أشعر بأنه طفلي وأني حملته لتسعة أشهر، ولكن لا ذنب له بكل ما يحصل لي، يجب أن أهتم به.

تمر الأيام ويكبر يومًا بعد يوم، وتتغير معاملة (جاد) كليًا، أصبح لا يكترث لأمري وكل ما يهمه ابنه، يعاملني بقسوة، ويضربني إذا بكى الطفل، لم أعد أحتمل تعامله، لم أعد أحتمل حياتي معه.

- ما بكَ يا (جاد)؟! لمَ تتصرف هكذا معي؟!

- سأتصرف كما يحلو لي، اسمعي ما آمركِ به واهتمي بابني جيدًا.

- (جاد)! أريد الطلاق.

يضحك بشكل غريب مستهزئًا بكلامي، فيقوم بمسك ذراعي بقوة:

- أتحسبِينَني غبيًا أم مختلًا عقليًا ولا أعلم ما يدور؟! أتريدين الطلاق والذهاب لحبيب القلب، عندما عدتُ لأسأل الطبيب حبيب قلبك عن نوع العصير سمعتكُما تتحدثان مع بعضكما، أهذا هو من سلبكِ سعادتك وجعلك تعيسة أمام كل شيء قدمتُه لكِ! لن أطلّقك ولن تكوني لأحد غيري لآخر أنفاسك.

كانت قبضة يده قوية، إلى الآن أثارها على ذراعي، وبعد أن عرف (جاد) كل شيء قررتُ بأن أهرب بحياتي من ذلك السجن، إلى هنا وكفى، إلى متى سأهدي حياتي للجميع وأظل أنا في صندوق لا يعرف العالم، لقد أصبح الطفل في سن جيد بأن يعتني به هو، أنا لم أعد أعرف مصيري ولا أعلم إلى أين سأذهب، لا ذنب له بأن يكبر ويجد أمًا مثلي لا تعرف مصدر حياتها.

أخذتُ أغراضي وخرجتُ من غرفتي ليلًا بهدوء أفتح باب المنزل، أهرب بنفسي عن ذلك العالم، أجري بعيدًا عن قصر (جاد) وممتلكاته التي لا أجد فيها سعادتي، يفتحُ لي الحراس البوابة باستعجاب، أجري قبل أن يكتشف (جاد)، لأجد أمامي..

(بدر)!! يمد يده لي قائلًا:

- ستهربين وحدك؟! لن أعيد الغلطة وأتركك تهربين مني وتتركيني مرة أخرى، سنهرب سويًا مهما كان مصيرنا، سنبني حياتنا من جديد معًا.

لا أستطيع وصف إحساسي وقتها، وكأني أحلم، لم يتخلَّ عني (بدر)، جاء ينقذني من يأسي وحيرتي، وضعتُ يدي بيده وسلّمتُه حياتي..

سافرنا بعيدًا بعيدًا جدًا، وتركنا كل شيء خلفَنا، عشتُ معه ما تبقى من عمري؛ ليعوضني عن كل ما افتقدته؛ راحتِي، سعادتي، أحلامي، ابتسامتي..

- أتعلمين! عندما ذهبتُ إلى نافذتك أنادي عليكِ وأرمي الحجارة لتراكِ عيناي التي اعتادَت كل يوم أن تراكِ مطلة تبتسمين لي كي أكمل يومي الشاق بقلب متراقص، لم أجدك.. يوم، يومان، ثلاثة، حتى نفذ صبر قلبي؛ لأجمع المال الذي جمعته من المصنع الذي كنت أعمل فيه بعد محاضراتي وأذهب أطرق باب داركم، وأنا أحضر الكلمات التي سأقولها لأبيكِ: مرحبا يا عمي، لقد جئتُ اليوم لأطلب يد ابنتك، لا.. لا، إني أطلب يد (نور) للزواج، همم لا... لا غير لائق، مرحبًا يا عمي أنا (بدر) وأطلب يد الآنسة (نور) للزواج.. ليقاطعني أحد الجيران يخمد فرح قلبي قائلًا: يا بني على من تطرق الباب، لقد سافر السيد (عادل) هو وابنته من المنطقة منذ أسبوع تقريبًا؛ لأبقى في تساؤلاتي وحيرتي التي دمرتني أعيش على بقايا ذكرانا، حتى تخرجتُ بتقدير ممتاز، وحصلتُ على عقد عمل في مستشفى المدينة الكبرى، لم أنسَكِ يومًا، كنتُ كل ليلة أحلم بكِ، ويقهرني السؤال الذي لا أجد له جوابًا، لماذا تركتِني هكذا من دون وداع ولا سابق علم.

- أنا آسفة يا (بدر)، لقد جرى كل شيء في لمح البصر، جاءت فرصة عمل كشريك للسيد (رأفت) بعد يأسه من إيجاد مصدر دخل جيد لنا، لم أستطع أن أتكلم وأنا أجد الأمل يعود لأبي من جديد، ولم أستطع أن تودّعك عيني وتقول لك أني لن أراك مجددًا.

..

ها أنا أُرزَق بطفلة من (بدر) والتي وهبتني الحياة من جديد، أنسَتْني كل شيء مضى، ها أنا أعيش على صوت ضحكاتهما، (إمي)،(بدر) ليحفظكما الله لي لأبد الدهر.

ولكن كل ما يقلقني هو كيف أن أعترف ل (إمي) بعد أن تكبر أن لديها أخ من أب آخر، وكيف أعترف لها عن هروبي..

كل ما أستطيع قوله أنني آسفة؛ فلم يكن قلبي لي يا ابنتي.

***

الفصل الرابع عشر

(هل يعوّضني القدر أم يفعلها بي مجددًا؟)

أغلقتُ كتاب مذكرات أمي وعقلي لم يعد يستطيع التفكير.. هل من أسعفته ومات بين يدي في العيادة كان أخي؟! ألهذا يعاديني (جاد)؟!

هل ظلمَته أمي؟! هل هو من دبر لوالديّ مقتلهما؛ لينتقم منهما؟! هل (جاد) مظلوم أم ظالم؟!

لم أعد أحتمل ضغط التفكير هذا، لم أعد أحتمل حقًا.. ينادي علي (فادي)، أستجيب لندائه مخفية كتاب مذكرات أمي ومخفية عن (فادي) ما قرأته؛ فهو بحالة صحية غير قابلة لسماع تلك الصدمات.

أُعدّ العَشاءَ وأضعه بالقرب من (فادي) وأذهب:

- إلى أين أنتِ ذاهبة يا (إمي)؟! ألن تتناولي العشاء معي؟!
- لا يا (فادي) فلتأكل أنت، أنا لا أشعر بالجوع.
- ولكن (إمي)، فلتجلسي بجانبي، أرجوكِ لا تتركيني آكل وحدي؛ فأنا لم أعتد أن آكل وحدي.
- أعتذر يا (فادي)، أريد البقاء مع نفسي قليلًا.

أذهب لغرفتي بما عرفته عن حياتي التي كنت أجهلها، أكان كل هذا بداخلكِ ولا تظهرين سوى الابتسامة على وجهكِ! ولكن.. لمَ تركتِ تلك الحقيقة الصادمة يا أمي؟! لمَ لم أقرأ هذا مبكرًا لرَأَيتُك يا أخي أو حتى لأودّعك وأقبّل جبينك، ليرحمك الله ويغفر لك.

يطرق (فادي) الباب:

- تفضل يا (فادي).

- لا أريد إزعاجك، ولكن..

يدخل بطعام وهو يعرج بعكازته ليجلس جانبي على السرير:

- لن أستطيع أن آكل وأنا أعلم أنك لم تأكلي بسبب شيء يجول في خاطرك، صارحيني يا (إمي) ما بك؟ لا تستطيع عينيك إخفاء شيء عني ما دُمت على قيد الحياة.

- إنه الشيء الوحيد الذي لا أستطيع أن أخبرك به، كل شيء أستطيع تفسيره عدا ما يجول بخاطري الآن.

يضمني إلى صدره:

- حسنًا، لا تخبريني به إن كان الأمر سيزعجك، ولكن إن كان الأمر بالماضي ولن نستطيع إصلاحه فطلقّيه ودعيه يذهب، لا شيء أثمن من تلك اللحظات التي نعيشها في حاضرنا، لا تفكري في ماضٍ يزعجك ولا في مستقبل يقلقك، اتركي كل الأمور تأتي وتذهب على سجيتها.. هيا دعينا نأكل سويًا.

أراحني كلامه كثيرًا ولم أعد أفكر فيما مضى؛ لأستمتع بوقتي الذي لن أجد أجمل منه بجانب (فادي)، تناولنا العشاء ونمنَا كتَمِلَين بجانب بعضنا..

أستيقظ، أنظر له وأحمد الله على وجوده بجانبي..

أنظر للساعة، إنها الثانية عشر ظهرًا، أصرخ:

- (فادي)!

يهب مستيقظًا:

- مماذا؟! ماذا جرى؟!

لأموت ضحكًا على ردة فعله.

- فليسامحكِ الله يا (إمي)، لقد توقف قلبي وأنت تضحكين!

تلازمني الضحكة:

- آسفة حقًا، ولكننا نمنا كثيرًا.
- ألم تجدي طريقة ألطف من هذه؟!
- حسنًا هيا يا (فادي)، لا تبالغ قم واغسل وجهك.
- حقًا؟! هل أبالغ، تعالي لأريك من الذي يبالغ الآن.

يحملني على كتفه بيده الأخرى:

- هههه توقف أيها المجنون، ذراعكَ مصاب.
- ها، من الذي يبالغ الآن؟
- ههه أنا أنا، أنزلني.

ينزلني وهو يتألم..

لتمسك بيدي خائفة:

- يا إلهي! ألم أقل لك ستصيب ذراعك!
- أحتاج لمسكن يا (إمي).
- آه، حسنًا لدي مسكن هنا، لحظة.

أقوم مسرعة أبحث عن المسكن الخاص بي، ولكن أين هو؟! كان هنا!

- (فادي)، سأذهب لصيدلية أشتري مسكنًا؛ فلا أعلم أين اختفى مسكّني، لن أتأخر.

- حسنًا عزيزتي خذي وقتك.. أقصد انتبهي على نفسك.

تذهب (إمي) لصيدليه لأنفّذ خطتي.

- مرحبًا، هل لديكَ مسكن قوي للعظام.

- نعم، تفضلي يا آنسة.

- شكرًا.

عدتُ للمنزل، أجد (فادي) جالس على الأريكة في الصالة، أتوجه له بكوب ماء وأدوات الجبيرة:

- هيا خذ، تناول المسكن، وهات يدك؛ لأجدد لك الجبيرة.

أُمسك يده بحذر وأفك عنها الجبيرة القديمة.. وأنا أنزعها وقع منها شيء نحاسي على الأرض، ألتقطه لأرى ما هذا؟! أنه خاتم نسائي!

- (فادي)، ماذا هذا الخاتم الذي بجبيرتك، ولمن يكون؟!

يأخذ (فادي) الخاتم من يدي ويمسك باليمنى..

أنظر لعينها المتسائلة أقول لها ما كان يجب أن أقوله منذ سنوات ولم يعطني القدر فرصة، أقول لها بكل صدق وإخلاص:

- (إمي)، وحده قلبك يعلم مقدار حبي له، وعينك تقرأ كل ما بعيني الآن، ولكن ما لا تعلميه عنها أنها أدمنَتْ النظر لك، لا تريد أن ترفعها من عليك ولو لثوانٍ، فكيف لها أن تُحرَم منك بعد أن أطيّب ولا تراك أمامها، لا أحتمل أن أراكِ أمام عيني طيلة الوقت ولا أستطيع الاقتراب منك، اجعليني أعوّض لكِ كل لحظه عشتِها بقلق وحزن ووحدة، دعيني أكفّر عن كل دمعة نزلت منكِ بسببي، دعيني أريكِ عالمي الذي خُلِق من أجلك، العالم الذي أغلقتُه من يوم رحيلك ونذرتُ أنه لن يكون لأحد سواك.. (إمي)، هل تقبلين أن تكوني زوجة مجرم تاب على يديك؟

عيناها كانت تدمع وكأنها لا تستوعب كلامي، ويداها باردتان ترتعش، أنتظر متلهفًا لسماعها..

- لا، لا يا (فادي).. لن أقبل أن أكون زوجة مجرم، ولكني أقبل أن أكون زوجتك.

يهب واقفًا يعرج لباب المنزل يفتحه وهو في قمة السعادة، ليدخل شابان ورجل بذقن طويلة وكأنه شيخ:

- لقد وافقَت.. وافقت يا (سعيد)، هيا ادخلوا.

لأسأله وأنا في قمة التعجب غير مستوعبة ما يحصل:

- من هؤلاء يا (فادي)؟! وماذا يفعلون هنا؟!

ينظر لي ويجاوبني بابتسامة يملؤها الحب:

- إنه المأذون يا (إمي)، هذان الشابان صديقي (سعيد) وصديقه (علي) شهود على زواجنا الشرعي؛ لأكون زوجك أمام الله ولتكوني حبيبتي مدى الحياة.

كنت في حالة غريبة بين الفرحة والتعجب:

- متى رتبتَ لكل هذا؟! ومتى اشتريت هذا الخاتم؟! فأنا لم أفارقك من يوم المشفى؟!

- هه، هذا الخاتم لم أشترِهِ اليوم ولا بالأمس.. بل ظل معي من ثمان سنوات وأنا أحلم بأن أضعه في يدك، أما موضوع صديقيّ والمأذون فقد اتفقت معهم بالأمس ليأتوا اليوم عندما أعطيهم الإشارة بعدما أخفَيتُ مسكّنك وتظاهرت بتألم؛ لتذهبي إلى الصيدلية وأنفذ خطتي.

أبتسم متعجبة:

- لا أصدقك! يا لك من محتال.

يقاطعنا (سعيد):

- هيا يا عصافير الكناري فالمأذون مشغول.

لم أكن أصدق ما كان يحصل في هذه اللحظة، حتى أيقظني المأذون من حلمي قائلًا:

- كم عمرك يا ابنتي؟
- تسعة وعشرون.
- وأنت يا بني؟
- ثلاثة وثلاثون عامًا يا سيدي.
- حسنا ممتاز.. أروني بطاقة الهوية لكل منكما.

أخرج بطاقتي من جيبي وتخرج (إمي) بطاقتها من حقيبتها وهي في حالة لا أفهمها، ولأول مرة لا أستطيع تحديد ما تشعر به (إمي)، وكأن السعادة والقلق يجتمعان في عقلها، أخذت بطاقتي وبطاقتها لأقدمهما للمأذون.

- لنبدأ بإذن الله وعلى الله توكلنا، هل تقبلين الزواج من (فادي إسماعيل الراعي)؟

تبتسم شفتاها الخجلة قائلة:

- نعم.. أقبل.
- هل تقبل بالزواج من (إمي بدر سلامة)؟

يبتهج قلبي ويجاوب عني قائلًا:

- نعم أقبل.

يطلب المأذون منا التوقيع على الوثيقة الشرعية، أُمسك بالقلم أوقّع والتوتر يظهر على رعشة يدي.. هل ما يحدث حقيقي؟! هل سيكون (فادي) زوجي؟! هل سأودع الوحدة التي عِشتُها لعشر سنوات؟! هل سيبدأ القدر يعوضني على ما فعله بي؟!

بعد أن وقّع (فادي) بعدي، أسمع التبريكات من صديقيه له، ويقول المأذون:

- تم زواجكما بحمد الله، ونتمنى لكما حياة رغدة وسعيدة، ويرزقكم بالذرية الصالحة بإذن الله.. السلام عليكم.

يثرثر (سعيد):

- لم تقل لنا أن العروس بهذا الجمال يا (فادي)، كنا على الأقل قمنا بشيء جيد.

ينظر له (فادي) نظرة يصمت بعدها (سعيد).

- ككنت أمزح يا (فادي)، ما بك؟

يقدم لي (علي) باقة من الورد يبارك لنا ثم يستأذنا للذهاب، يوصلهم (فادي) لباب المنزل، وأنا بمكاني جميع حواسي صامته.. حتى يأتي (فادي) يجلس بجانبي على الأريكة:

- (فادي)، ما الذي جرى منذ قليل؟!

يضحك مبتهجًا قائلًا وهو يضع يده على رأسي بحنان:

- لقد أصبحتِ زوجتي يا (إمي).. أصبحتِ لي للأبد، أصبحتُ قادرًا على أن لا أرفع عيني عنك أبدا.. سنبني حياتنا سويًا.. وسننسى الماضي وما فيه، سنواجه كل عقبات القدر سويًا، لن أتركك بعد اليوم أو أتخلى عنك مهما حدث.. سأكون بجانبكِ دائمًا وللأبد، سأرسم البسمة على وجهكِ، وأمسح الدموع من على جفنكِ.

تضع رأسها الصغير ويدها على صدري تعانقني خجلًا وهي تدمع، لتنعش قلبي وتزداد نبضاته، أُغلقُ عيني وتلمس يداي شعرها الناعم:

- أعدكِ أن أول ما سأقوم به عندما أقف على قدمي هو أداء رقصة معكِ على مسرح زفافنا، وليكُن الله بعونكِ؛ فأنا لا أجيد الرقص.

- هههههه، لا تقلق سأعطيك دروسًا في رقصة البطريق قبل الزفاف، ولكن كن تلميذًا مهذبًا، وخذ دواءك حالما أحضّر الطعام.

***

تمر بنا أجمل الليالي والأيام..

ويتعافى (فادي) بعد أسبوعين تقريبًا ليَستغني عن عكازته، لم ينسَ وعده لي وأقمنا حفل زفاف على رمال الشاطئ الصافية، وقمت بدعوة كل أصدقائي وزملائي في العمل وكذلك فعل (فادي)، كانت تبدو عليه فرحة وحماسة غير طبيعية.

كان يومًا من أجمل أيام حياتي، كان يملأه الضحك والسعادة والفرح، كنت أشعر بسعادة مختلفة من نوعها وأنا أقف بجانب (فادي) وعيني التي تبتسم في كل مرة رأته يتحدث فيها، كان قلبنا يبحر بين ضحك الناس وأحاديثهم..

تسرح عيني في عينها، قلبي لا يستطيع تحمل هذا القدر من السعادة، فكل التعب الذي شعرت به يهوّن بابتسامة منها، ينطق قلبي:

- أتمنى أن لا تفارق هذه السعادة قلبك ولا تتوه الابتسامة عن شفتَيك، يا أغلى ما تمنيتُ في هذه الحياة، أحبك يا من استوليت على قلبي وحواسي وحالتي وكل ما أملك.

- ولا يبعدني عنكِ نور حياتي ودربي.

انتهى ذلك اليوم الذي لم أكن أتمنى أن ينتهي، عدنا بسيارة زفافنا للمنزل، ليقوم (فادي) بحملي من السيارة إلى المنزل، أصرخ خائفة أن نقع نحن الاثنان وهو يضحك لا يبالي، ليضع قدمي على أرض مملكتنا، ولتبدأ أجمل أيام حياتنا.

فقد وجد (فادي) وظيفة في إحدى شركات الدعاية والإعلان، كان بطلي هو المصوّر ومسؤول الإخراج، لقد اكتشف هواية التصوير هذه ونحن

في أجازتنا، لم يترك حركة أفعلها حتى التقَطَها؛ وأنا أضحك، آكل، أتحدّث، أقع، هههه كان مشاغبًا جدًا، ولكنه فاجئني بشريط الفيديو الذي صنعه من هذه الصور وكأنه فيلم في إحدى السينمات، لقد قال لي وقتها أنني أُعرَض هكذا في مخيلته دائمًا، شريط فيلم جميل لا ينتهي..

أكملت أنا عملي بعد انقطاع طويل، نستيقظ صباحًا معًا للعمل ونأتي ليلًا لتكون أجمل ليالِ حياتي معه..

حتى شعرت ذات يوم وأنا أمشي في طرق المشفى بالغثيان والدّوَار الشديد، أسند نفسي على الجدار خشية أن أقع.

تراني إحدى زميلاتي وتسرع نحوي تسألني:

- (إمي) ما بك؟! تعالي فَلتجلسي.

- لا.. لا، أريد الذهاب للحمام، أشعر أنني أريد التقيؤ.

تأخذني إلى الحمام، لأجد نفسي أسرع لمقعدة الحمام وأخرج ما بأحشائي حتى أرتاح، أقف على قدمي أغسل وجهي.

- (إمي) هل أكلتِ أكلًا ملوثًا؟!

- لا أعتقد؛ فأنا من أعددتُ الطعام اليوم.

- كيف حال زوجك (فادي)؟

- إنه بخير الحمد لله.

تنظر لي وتبتسم ابتسامة غريبة:

- يجب أن تزوري طبيبة النساء والولادة كي تتابع حالتكِ.

- لماذا؟ ما الحاجة؟!!

- ما بكِ يا (إمي)؟! أنتِ و(فادي) متزوجَان منذ سنة ونصف، لابد أنه

حَملٌ بإذن الله، فعلى حد علمي أن ما تشعرين به أعراض حمل.

تصيبني الصدمة! لا أصدق ما تقوله! ماذا؟! مستحيل لا... لا.

- حسنًا سأفعل، أشكركِ يا (سارة) على مساعدتك.

أذهب مسرعة لمكتبي، أنظر للساعة، أنتظر انتهاء الساعتين المتبقيتين بفارغ الصبر لأذهب وأتأكد ممّا قالته (سارة)، لا أستطيع التوقف عن التفكير في ماذا لو كنت حقًا حامل؟! إنه شعور غريب ومخيف حقًا.

ذهبت للصيدلية التي بجانب عيادتي، أشتري جهاز كشف الحمل، يرن هاتفي:

- ألو.. مرحبًا (فادي).

- مرحبًا حبيبتي، أنا أمام عيادتكِ الآن، هل انتهيتِ أم لا؟

- آه.. نعم جيد، لقد أنهيتُ عملي منذ دقيقة.

وضعت الجهاز في حقيبتي أخفيه حتى لا يراه (فادي)، دخلتُ السيارة ليمسك (فادي) بيدي يقبلها مبتسمًا، ويسألني:

- كيف كان يومك؟!

- كان كل شيء على ما يرام.

- هل تحبي أن نتناولَ العشاء بالخارج اليوم؟

- لا ليس اليوم؛ فأنا أشعر بالإرهاق قليلًا.

- حسنًا كما تشائين، سأقوم بإعداد العشاء اليوم بما أنكِ مُرهَقَة.

دخلنا المنزل، صعدت مسرعة للحمام أجرّب الجهاز والتوتر والخوف يأكلني..

أرى على الجهاز خط عريض يقول بأنني حامل!.. تملأ الصدمة عقلي ويسيطر القلق والخوف على أعصابي، أعيد الاختبار مرة ثانية وثالثة.. كل التجارب تعطي نفس النتيجة..

يطرق (فادي) باب الحمام:

- عزيزتي، أين شرائح اللحم التي أحضرتُها بالأمس؟

- ...

- (إمي) حبيبتي، هل أنت بخير؟! لقد أطلتِ في الحمام!

أفتح باب الحمام وأنا لا أُبدي أية ردة فعل، فقط الصدمة تملأ وجهي..

- _ماذا بك اليوم يا (إمي)؟! لست طبيعية، هل أنت بخير؟!

أنظر له لتنزل الدمعة من عيني، يقول خائفًا:

- ماذا؟! لمَ تبكين يا (إمي)؟!! ماذا جرى؟! هل ضايقكِ أحد في العمل اليوم؟!

توجهت لأجلس على السرير أبكي..

لا أفهم ما يجري، أنحني لها:

- هيا يا (إمي) أرجوكِ لا تقلقيني أكثر، قولي ما بكِ عزيزتي، قد يكون أمرًا نستطيع حله!

أعطيه الجهاز:

- أنا حامل يا (فادي).. حامل.. كيف ستحل الأمر؟

يصمت عقلي للحظات؛ ليستوعب ما قالت..

تبدأ ملامحه تتغير؛ فيهب واقفًا يقول والسعادة تملأه:

- ماذا؟!! مماذا قلقتِ؟!!! هل أنتِ جادة؟! هه.. أنا لا أصدق.. هههه.. وأخيرًا.

لم أكن أستطيع وصف مقدار سعادتي وقتها، لقد عوّضني القدر كثيرًا وأصبحَت السعادة سعادتين، لقد فقدتُ عقلي عندما قالت لي هذا الخبر الذي جعلني أطير فرحًا.. ولكن! ما بها (إمي)؟!

أنحني لها مره أخرى أسألها متعجبًا:

- لمَ تبكين الآن يا (إمي)؟! ألا تريدين أن تصبحي أُمًّا! ألا تريدين طفلًا مني؟

تنظر لي والدموع تطفو على جفنها:

- بلى.. ولكني خائفة جدًا يا (فادي)، أشعر أني لستُ مستعدة بعد.

أضمها إلى صدري الذي تملأه السعادة:

- لا تخافي يا (إمي) أنا بجانبك دائمًا، إنها مهمتنا الجديدة في الحياة، لن أتركِكِ تتولينها وحدكِ، اطمئني.. أحبك.

***

بعد ثلاثة أشهر يبدأ ظهور انتفاخ البطن وألم الظهر وانفتاح الشهية بشكل غريب، ولكن من كان يخفّف عني ويلهيني عن تلك الأعراض المؤلمة أني كنت أكتشف كل يوم أشياء جديدة في (فادي) لم أكن أتوقعها، فلم أكن أعلم أنه ماهر في الطبخ والتنظيف والاهتمام، كان يجيد المساج والإلباس أيضًا، كنت كل يوم في فترة حملي هذه أكتشف فيه شيئًا جديد، لقد نسيتُ كيف آكل الطعام بيدي؛ يصر بأن يقوم بكل شيء هو حتى إطعامي.

كانت تعجبه مشيتي وأنا أتخبط يمين ويسار ببطني المنتفخة، يظل يضحك إلى أن أجلس ليعاود الضحك عندما أقف.. سخيف، ولكن لا أتصور حياتي بدونه.

حتى جاء اليوم وأنا في شهوري الأخيرة، يساعدني (فادي) بالجلوس على الأريكة بتمهل وأنا أخرج زفيرًا مجهدة أتساءل، متى يزول هذا الانتفاخ.

يناولني كأسًا من الماء يضعه على فمي لأشرب، فأشعر بركلة قوية في بطني من الداخل وكأنها تتمزق؛ لأبزق ما في فمي من ماء وأبدأ في الصراخ بألم...

أتشتت خائفًا لا أعرف ماذا يحدث وماذا يجب أن أفعل! لتقول لي وهي تصرخ:

- المشفى، المشفى لقد نزل السائل، سألِد.

أهبّ واقفًا أحملها بسرعة إلى السيارة وهي تصرخ ألمًا، لأقود بسرعة جنونية حتى نصل لأقرب مشفى، يسرعون بإدخالها إلى غرفة الولادة وقلقي سيقتلني عليها، أدخل معهم ممسكًا بيدها، أحاول أن ألهيها عن الألم الذي تشعر به...

أمسك يده بقوة وأنا أشعر بأني سأفقد الوعي من شدة الألم، أشعر أن أحشائي تتقطع إلى أن أتى وقت خروج قطعة مني لهذا العالم، أبدأ بالطلق بألم مبرح حتى أسمع صوت صراخ صغيري..

وأخيرًا لقد انتهت المعاناة..

رأيت السعادة والفرحة على وجه (فادي) وهو يمسك بابنته ويقبّلها حتى أغلق عيني وأستكين مجهَدَةً من الألم..

ينقلوني إلى الغرفة الأخرى لأرتاح، أجد (فادي) يوقظني بحماس ولهفة وهو يحملها، كانت السعادة تملأه، يقول وهو يقربها إليّ:

- انظري.... انظري يا (إمي) كم ابنتنا جميلة، انظري إنها تشبهكِ كثيرًا.

أبتسم بجهد وتتطوق عيني ذلك المشهد، أحملها في أحضاني لأرى وجهًا منيرًا كالبدر، وعينين كلونِ أمواج البحر، وأنفًا صغير الحجم وشفاهًا ورديّة صغيرة، تنزل مني دمعة على خدها الوردي، أمسح على رأسها الذي ينبت عليه الشعر الحريري، أقربها لصدري لتشعر بنبضات قلبي؛ فيحتضنّا (فادي) نحن الاثنين:

- لا أستطيع أن أصدق أن الله عفى عن أخطائي وأعطاني كل هذه النعم، أنتِ أجمل ما حصل لي في هذه الحياة يا (إمي)، لا أريد أن أفقدكما أبدًا، أريد أن يظل هذا العناق للأبد.

- ماذا سنسميها يا (فادي)؟

- (جميلة).. ما رأيك؟

- (جميلة).. أبوكِ من سماكِ (جميلة)، إذا لم يعجبك الاسم عندما تكبرين فهذه ليست غلطتي.

..

بعد أن قضيت ثلاثة أيام في المشفى أستعيد فيهم قوتي كنت أرى في كل ليلة (فادي) يجلس على الأرض محتضنًا ابنته ويتحدث معها بصوت خافت وكأنه يخبرها بسِرّ، كنت أرى تعلّقه بها؛ فأقول له مازحة:

- هل ستأخذ تلك الفتاة كل اهتمامك لها ولن تبقِي لي شيئًا؟!

يقف ضاحكًا متوجهًا لي:

- هل بدأت الغيرة بينكما من الآن؟!.. بالطبع يجب أن أهتم بكما، فأنتما الاثنان أغلى ما قد أملك في هذا الكون، من الآن وصاعدًا سأفرّغ نفسي لكما وكل ما قد تتمناه ستجدانه أمامكما، سأعمل جاهدًا ليلًا ونهارًا من أجلكما، وسأمحي مَنْ قد يفكّر بلمسِكُما عن وجه الأرض، هل تعلمين... سأشتري لنا منزلًا كبيرًا لنعيش به بعيدًا عن ضوضاء المدينة ومشاكلها، أعيش به أنا وأنت و (جميلة)، سيكون هذا هو عالمنا السحري، سأعلّم ابنتا في أفضل المدارس، وسأدخلها أفضل الجامعات، سأعلّمها التصوير وفنون القتال واليوغا وكل شيء.

- حتى يأتي من يخطفها منّا لتكون له وحده.

- لا... لن أدع أحدًا يخطف أميرتي أبدًا، وإن حاول سأواجهه بالحقيقة وأقول له: ليكن بعلمك لن يخطف أحدٌ أميرتي الصغيرة، فقط أنا من ستحب، فقط أنا من أحبها.

أقول له وعيني تدمع فرحًا:

- ستكون أبًا مختلًا عقليًا يا قلبي.

يضحك وهو يضمني لأحضانه الدافئة:

- أحبك، أحبك حقًا يا (إمي)، أشكركِ على منحي تلك الحياة التي لم أكن أتمناها قط.. هيا دعينا نذهب من المشفى؛ فلدي الكثير من المفاجآت لكما.

يمسك يدي يساعدني على النهوض، أقف شيئًا فشيئًا وأنا أشعر بالقليل من الألم لا يزال بظهري، يعطيني (جميلة) أحملها:

- ها هي أمكِ يا (جميلة)، اذهبي في أحضانها، ولكن لا تعتادي عليه كثيرًا؛ فسرعان ما سآخذكِ منها مرة أخرى.

يذهب (فادي) إلى الريسبشن لدفع الرسوم، ويأتي يحمل حقائبي لنخرج سويًا، كنت أحملها وهو مستمر بالحديث معها بسعادة وكأنها تفهم ما يقول:

- ما رأيك بأن نأخذ أجازة ونسافر لإحدى الجزر الخلابة؛ لتنسي ما عانيتِه في فترة الحمل والولادة؟!

أضحك على ما يقول:

- هل أنت جاد؟!

وفجأة أسمع صوت طلقة مسدس..

أحمي (جميلة) في أحضاني خائفة:

- يا إلهي! (فادي)، ما هذا الصوت؟!

- .....

وأنظر (لفادي) خائفة وأسأله مرة أخرى:

- ألم تسمع ذلك الصوت؟!

يقع (فادي) راكعًا على ركبتيه وهو لا يزال صامتًا، يقع مستلقيًا على ظهره والرصاصة تحشي قلبه والدم ينهمر منه على الأرض كالماء!

لا تصدق عيني ما ترى..

لا.. لا مستحيل!

أركع أمامه مصعوقة وأنا أحمل ابنتنا أناديه:

- (فادي)، هيّا رُدّ عليّ؛ فأنا... أرجوكَ لا تمزح الآن، ستبكي (جميلة) يا (فادي) هيا قم.. فلترنا مفاجآتك.

يتجمع الناس وأسمع صوت ضحكة مجنونة:

- وأخيرًا، أخيرًا لقد أخذت بثأرك يا ولدي، انظر... انظر إلى القهر الذي بعينها انظر واستمتع، هيا اشعري الآن، اشعري بما شعرتُ به، اشعري قليلًا بالأيام التي عانيت فيها، بسببكما.

لا لا لم يمت، لا مستحيل (ففادي) (فادي)!!..

تسكبُ عيناي الدموع، أشعر بالحرقة في صدري، أريد أن أغلق عيني وأفتحها فأكتشف أنه حلم، أريدكَ أن تبقى يا (فادي)، ألم تكن تريد أن نذهب لأجازة؟ هيا... هيّا قُم؛ سنذهب ونحضر الحقائب، هيا لا تكن أبًا كسولًا، (فادي) خذ... خذ احمل ابنتك، إنها تناديك، اسمع... اسمع هذا؛ إنها تناديك، اسمع... ألا تسمعها؟ إنها نطقت باسمك!، هيّا قم يا (فادي)، أرجوك قم...

يأتي الأطباء ويحملوه من أمامي لإسعافه، وأنا أصرخ أحاول أن أقنعهم أنه لا يزال حيًا، لمَ لا يريدون تصديقي؟! حتى أشعر بأنفاسه التي لم تعد تخرج.

يأخذوه من أمامي وأظلّ جالسة مكاني حاملة ابنتنا لا تستطيع قدمي حملي، تائهة أهذي وأضحك كالمجنونة، كالمجنونة؟! لقد أصبحتُ فعلًا مجنونة، ومن يحصل له كل هذا ويظل بقواه العقلية؟!

ينظرُ إليّ الناس بشفقة، يتعجبون حالي الذي كسره القدر بأحكامه..

لقد مات! لقد مات يا قلب! لقد جاءت الطلقة في منتصف قلبه الذي يحمل اسمينا! هه (جميلة)، لقد مات والدك! مات وتركنا وحدنا! لقد قتلَه! هه ليأخذ بثأر ابنه مني ومن جدتك، لقد مات يا (جميلة)! أبوك مات!

ولكن لا... لا بماذا أهذي أنا، أعلم أنه لم يمُت، إنه فقط يمزح معنا، أليس كذلك؟! لا... لا تبكي... لا تبكي يا (جميلة) قد يسمعنا الناس.... أصص.

تأتي الشرطة لتقبض على ذلك المجرم بعد فراره وهو يضحك كالمجنون، لا يزال صوت ضحكته المزعجة بأذني يتردد، أشعر أني أريد حرقه.

يحملُني الناس وهم متأثرين بحالتي ويجلسوني على كرسي، يرن هاتفي وأنا لازلت تائهة أكلم نفسي..

تجيب امرأة على الهاتف:

- ألو... مرحبًا (إمي)، أين أنتِ؟
- مرحبًا، هل أنت من أقاربها؟!
- نعم! لماذا هل حصل لها مكروه؟!

تأتي (سما) مسرعة بعدما عرفت بما جرى معي، تأخذني في أحضانها تحمل عني (جميلة)، تدخلني سيارتها وتذهب للمشفى لتكمل إجراءات وفاة (فادي).

لم أستطع أن أحضر جنازته.. أعيش في حالة صدمة غير مقتنعة بما حصل، أكلم جدران المنزل كالمجنونة في كل حين وآخر، أكرر:

- لم أتوقع.. لم أتوقعَك أيها القدر أن تكون بتلك القسوة! لم أتوقعك بهذا الظلم والجبروت! لمَ؟! لمَ دائمًا تحب أن تراني حزينة ومنكسرة؟! لمَ تكره كل من أحببتهم؟! لمَ تشعرني أني لعبة بين يديك؟! وما ذنبُ تلك الطفلة؟! لمَ حرمتها من حنان وحب أبيها، أبيها الذي مات مرارًا من أجلنا، الذي كان يريد أن يهرب بها عن أعين الناس فرحًا، لمَ تكسر قلبي دائمًا وبشكل لم أتوقّعه؟!

أخذتني (سما) لمنزلها لتعتني بي وبـ(جميلة) حتى أهدَأ وأعود لطبيعتي، بعد أن رأت حالتي المزرية.

أنام والدموع في عيني لاتزال مستيقظة..

***

الفصل الخامس عشرة

(قلبي حي)

كنت في مكان لا يوجد به سوى اللون الأبيض، أرى (فادي) قادمًا من بعيد وهو يرتدي ثوبًا مضيئًا من بياضه، يقترب لي فينطق قلبي:

- (فادي)! لقد اشتقت لك، أين كنت؟! لمَ تركتنا وذهبت؟! من سيربي ويهتم بـ(جميلة)؟! ألم تعِدنِي بأنك لن تتركنا أبدًا!

يبتسم ابتسامته التي لم ولن أرى أجمل منها:

- حبيبتي (إمي)، لا تحزني، أنا دائمًا معكما حتى لو كان جسدي تحت ألف طبقة من الأرض، قلبي يتبعكما في كل مكان، لا تبكي.. أنتِ تعلمين كم دمعك غالٍ عليّ، وأن كل دمعة تنهمر منك تجعليني أشعر بألم تلك الطلقة في قلبي ألف مرة، ابتهجي؛ فقد كفّر عني ذلك الرجل ذنوبي بقتله لي، نعم كان عقابًا مؤلمًا، ولكن أشعر براحة ورضى الآن، لا تحزني واهتمي بـ(جميلة)، عوّضيها عن حناني، أريد أن أراها مبتسمة دائمًا، وبلّغيها أني أحبها حبًا لن يحبها رجل على وجه الأرض بقدره، واحكي لها عن أبيها الذي كان يعشقُ أمها عشق الجنون، وإن اشتقتما إليّ كثيرًا اذهبا إلى ذلك الكوخ الذي كنت أهرب إليهِ وبكِ هربت، ستجدون روحي تنتظركما هناك.

يتلاشى من أمامي شيئًا فشيئًا، وأستيقظ من حلمي أنادي:

- (فادي)!

لأدرك أن الحلم انتهى.. أنظر للساعة، إنها السابعة صباحًا، أقوم وألقي نظرة على (جميلة) في سريرها، إنها مستيقظة تلعب بيدها وقدميها.. يا

لجمالها!

أتذكر كلام أبيها الذي قاله في الحلم..

تدخل علينا (سما):

- ها قد استيقظَت الأم وابنتها، صباح الخير.

أبتسم ويدي تلامس (جميلة):

- صباح النور.

- هيا لقد أعددتُ الفطور وطعام (جميلة)؛ فمن الواضح أنكِ لن تستطيعي إرضاعها هذه الفترة، هل أصبحتِ في حال أفضل الآن؟!

- نعم... لقد أصبحتُ بخير قليلًا، أشكركِ على اهتمامكِ بـ(جميلة) هذه الفترة التي كنت مغيّبة فيها بحزني، لن أنسى لكِ ذلك المعروف.

- ماذا تقولي يا (إمي)؟! عيبٌ عليك وعلى أيام صداقتنا، هذا واجبي، ولكني لن أرتاح إلا أن تعودي إلى عملِكِ غدًا وتشرحي لدكتور (طارق) ما مررتِ به، وبالتأكيد سيتفهم ما عانيتِه وتكملي حياتك بجانب ابنتك.

أقول لها يائسة:

- لا أعلم يا (سما)، أشعر بأني لا أريد أي شيء بعد أن فقدتُ (فادي)، لا أريد حتى حياتي، ولكن.. يجب أن أعود لعملي؛ حتى أستطيع تأسيس (جميلة) والاهتمام بها.

- هيا دعينا نأخذ (جميلة) ونتناول فطورنا الآن.

..

في اليوم التالي ذهبتُ إلى العيادة قلقة، فقد يرفض (طارق) بعد ما حصل بيننا آخر مرة ولتغيّبي الزائد..

طرقتُ الباب:

- مرحبًا دكتور (طارق)، هل تسمح لي بالدخول؟

يقف مبتسمًا وكأنه لا يصدق ما يراه:

- (إمي)! لم تتغيّري كثيرًا، لا زِلتِ جميلة كما أنت، لقد افتقدَتْكِ ممرّات المشفى كثيرًا.

- أشكركَ يا (طارق)، لم أتوقع هذا.

- تفضلي، تفضلي بالجلوس يا (إمي)، ماذا تودي أن تشربي؟ هل أطلب لكِ القهوة أم عصيرًا طازجًا؟

- لا...لا شكرًا، لا أرغب بشرب شيء، كأس من الماء فقط.

يطلب لي من السكرتيرة كأس ماء:

- أعلم ما ستقولينه؛ فأنا أعرف كل ما مررتِ به هذه الأيام، بعد أن فقدتِ زوجك، كانت تجربة صعبة عليكِ.

- ومن أين عرفت؟!

يفتح لي التلفاز على الأخبار:

وبعد أن كُشفَت جرائم رجل الأعمال (جاد رأفت كساب) هو ومن معه بواسطة التسريبات التي أعطاها (فادي إسماعيل) رحمة الله للجهات المختصة، قامت الشرطة بوقف كل صفقاته واعتقاله بعد إثبات تهمه والحكم عليه بالسجن مدى الحياة، وبعد أربع سنوات تم نقل (جاد) إلى المصحّة العقلية بعد شكاوي السجناء عن تصرفاته الخارجة عن السيطرة، قام (جاد) بالفرار من عربة الشرطة وقتل السيد (فادي إسماعيل الراعي) أمام مشفى المستقبل، والتي تمّت فيها ولادة ابنته التي لم يسعد بها، يتم القبض على (جاد) مرة أخرى والحكم عليه بالحجز المشدد إلى أن يتأكدوا بأنه ليس مختلًا عقليًا بالفعل، وإلى هذا الحين ننتظر حكم الإعدام، هل سيُترَكُ حق

السيد (فادي)؟! هل سنناشد من أجل الأبطال الذين يضحون بحياتهم من أجل الوطن...

يغلق (طارق) التلفاز، تدمع عيني بعد تذكر الحادثة:

- (إمي)، أعتذر لم أقصد أن أزعجك بتلك الحادثة، ولكن الجميع أصبح يتحدث عنها.. هل أنتِ بخير؟!

- لا مشكلة يا دكتور (طارق).

يقوم من على مكتبه يجلس بقربي ويضع يده على كتفي:

- (إمي)، من ذلك اليوم الذي جِئت فيه لتلك العيادة شعرتُ بانجذاب تجاهك، كانت تسعد عيني برؤيتكِ كل يوم تراكِ فيها، (إمي)، أريد أن أهتم بك أنتِ وابنتك وأعوّضكما عما فقدتماه.. لنتزوج وتنسِي ما مضى، سأغيّر لكِ حياتك ولن تندمي على قرارك إن وافقتِ..

كنت أسمع كلامه وأنا في حالة صدمة وتعجب، وقفتُ بغضب:

- ومن قال لك أني احتاج تعويض؟! أستاذ (طارق) شكرًا لك حقًا، لم أتوقع منك طلبًا كهذا في تلك الظروف التي أمُرّ بها.

توجهتُ للباب، وقبل أن أخرج ألتفت له وعيني تدمع:

- مالا تعرفه يا (طارق) أني لا أستطيع نسيان الماضي، ولا يستطيع أحد أن ينسيني (فادي)، لن أنسى أنه قد ضحّى بحياته كثيرًا لينقذ هذه الروح البائسة، ما لا تعرفه أن زوجي لا يزال بداخلي ورائحته لا تفارق أنفاسي.. أشكرك على منحي تلك الوظيفة، ولكن لم أعد أرغب بها.

أخرج مسرعة من العيادة أشعر بأن أحدًا يخنقني، أشعر بألم حاد في صدري لأجد نفسي متوجهة لنفس ذلك البحر الذي امتلأ بأحزاني وشكواي، ذهبتُ أبكي له لعله يشعر بي ويسمعني:

هذا نصيبُكَ يا قبي فلا تحزن، عندما يكتب القدر لك أن تفارق من

تحب من أجل سعادته، عندما تكون مكتوف الأيدي لا تستطيع أن تأخذ حقك ممَّن سلبك حياتك وجُزءًا منك، هذا نصيبك يا قلبي فلا تحزن، عندما يكتُبُ لك القدر في يوم السعادة التي لم تكن تتوقعه فاعلم أنه فخ، يعلّقك به حتى يسلبه منك بطريقة لم تتوقعها أيضًا وتموت قهرًا، لا تحزن يا قلب؛ فهذا ما كُتِبَ لك في هذه الحياة، كان سيحدُث لك مهما طال الزمن، ومهما هربت منه سيحدث.

أتماسك وأمسح دموعي متقبلة ظلم القدر، أعود إلى منزل (سما)؛ لأخذ (جميلة) ونكمل طريقنا وحدنا.

..

- (سما)، أشكركِ مرة أخرى، أنت إنسانة جيدة حقًا، وأود لو كنت في حال أفضل ونذهب لتناول الغداء معًا، ولكن سأضطر لتوديعكِ الآن، سآخذ (جميلة) ونعود إلى ذلك الكوخ البعيد الذي أحببتُ فيه الحياة؛ ليكون منزلنا حتى تكبر (جميلة)، ولا تقلقي... سنزوركِ عندما أحضرها إلى المدينة لتكمل دراستها وتعليمها، لن أستطيع أن أعيش في هذه المدينة التي علَيها نفس ذلك المجرم بعد أن عرفتُ أن الشرطة نقلته إلى المصحة النفسية ولم يتم إعدامه، قد يهرب في أي وقت ويؤذينا مرة أخرى، وأنا لم أعد أتحمل خسارة أي شخص آخر، أريد أن أحمي (جميلة) وأربيها في أمان؛ فهي كل ما تبقّى لي في هذه الحياة.

- حسنًا يا (إمي)، أنا أعلم ما تمرين به وبما تشعرين؛ لذلك سأسمح لكِ بالذهاب وتركي، فقط لأني أعلم مقدار ألمك، ولكن اعلمي أنني في انتظاركِ أنت و(جميلة)، وإن أرسلتِها إلى المدينة لتكمل تعليمها فستظل تحت رعايتي واهتمامي.

أحتضنها مودعة:

- لن أنسى وقفتكِ معي.

أحمل (جميلة) ذاهبة، وتودعنا (سما) من على الباب:

- في أمان الله يا (إمي)، انتبهي على (جميلة).

ذهبت لمنزلي أجمع حقائبي وأغراض (جميلة)، واشتريت المؤونة اللازمة لتكفي لجعلنا على قيد الحياة لسنوات بالمال الذي أعطتني إياه المحكمة كتعويض عما فقدته.

أُوقِف سيارتي على رمال ذلك الشاطئ، وضعتُ أشياءنا بالقارب الذي حفَر عليه (فادي) اسمينا.. ها أنا أبحر إليك.. أضع قدمي على تلك الأرض التي تهتُ فيها لأجدك..

أدخل الكوخ ب(جميلة) وأنا أتفقد كل زاوية فيه بعيني، أتخيل أجمل اللحظات التي كانت بيني وبين (فادي)، كل زاوية به تحمل لي ذكراه، أغمضُ عيني، وأشتم الهواء الذي يمتزج برائحته، أشعر بأنفاسه داخل رئتِي، أشعر بأنه موجود، أشعر به في كل مكان..

لقد جئتُ يا (فادي)، اشتقت لك.

***

تمضي بي الأيام في هذا الكوخ وترى عيني (جميلة) وهي تكبر يومًا بعد يوم والضحكة لا تفارق وجهها:

- هيا يا (جميلة) تعالي لتأكلي فطورك وتشربي حليبك.

- حسنًا ماما.

تجلس (جميلة) وتسألني:

- ماما، أين أبي؟! لمَ لا يجلس معنا؟

- أبوك دائمًا معنا يا (جميلة)، فقط اشعري به وستجدينه، وإن اشتقت له قولي له اشتقتُ لك يا أبي ونامي، سيأتي لكِ في الأحلام وسيلعبُ معكِ، هيا أيتها البطلة اشربي حليبك.

تجري مني (جميلة) هاربة لا تريد شرب الحليب لتخرج إلى البحر، أركض

وراءها وهي تضحك:

- أتهربين مني أيتها المشاكسة؟!

لأشعر بطيف (فادي) يركض جانبي، ينظر لي ويبتسم لتبتسم روحي.

..

بلغت (جميلة) السادسة من عمرها ليحزن قلبي، لقد مرّت الأيام بسرعة، كيف لقلبي أن يتركها تذهب إلى المدينة وحدها؟! لن أستطيع، لن يطمَئِنّ قلبي..

- هل حضّرتِ حقائبك يا (جميلة)؟

- نعم ماما، أنا متشوقة جدًا للذهاب هناك، سأكوّن صداقات كثيرة.

أنحني أضمها:

- ليحفظك الله لنا.

أجمع حقائبنا وأودع (فادي) بقلبي:

- إلى اللقاء يا عزيزي، لقد كبرَت ابنتك وتحتاج لأن ترى العالم، سأحقّق لك كل ما تمنيته من أجلها.. سأشتاق لك.

أبحر للمدينة وأذهب مع (جميلة) وهي ممسكة بيدي، أسجّل لها بأفضل مدرسة بالمدينة كما تمنّى (فادي).

فتحتُ باب منزلي الذي يعمّه التراب، وضعتُ الحقائب جانبًا وقمت بتنظيفه؛ لأجد (جميلة) ممسكة بالمكنسة:

- هيا يا أمي، لدينا عمل شاق.

أبتسم، أرأيتَ ماذا تقول ابنتك يا (فادي)! ما أجملها! لقد كبرَت وكبر حبي لها، اللهم احفظها لي واحمها.

ها هو أول يوم لها في المدرسة، أقوم في الصباح الباكر، أفتح الستائر لتنفذ أشعة الشمس المبتهجة وأُيقِظُها، أجد نفسي أقف مكان والدتي أحضّر

الفطور بكل حب، وها أنا أنزل من على السلم.. تجلس (جميلة) على المائدة قاطعة المشهد الذي يعرض أمامي، لأمسك بقلادتي أقبّلها وأدعو الله بأن يسكنهما جناته...

- ماما، هيا سأتأخر.

- حسنًا عزيزتي، ها أنا لقد انتهيت.

نصل للمدرسة، تنزل (جميلة) متحمسة من السيارة تودّعني، تنظر لها عيني حتى تدخل المدرسة، يريد قلبي أن يذهب معها ولا يتركها أبدًا.

..

- عزيزي، لقد عُدتَ؟!

- نعم اشتقتُ لكما؛ فجئت.

- الأمر مرهق يا (فادي)، حتى بعد أن تركتُ وظيفتي أستيقظ باكرًا كل يوم.

- كله من أجل ابنتنا، ليتَني حاضر، لما جعلتكِ تشعرين بالإرهاق أبدًا.

أضع رأسي على صدره نائمة:

- اشتقتُ لك.

- وأنتِ أيضًا حبيبتي.. قولي لي كيف عرفَت (جميلة) ملامح وجهي لهذا الحد؟!

- كانت تسألني وكنت أصِف لها.

- لم أكن أعلم أني وسيم لهذا الحد في نظرك! لقد رأيتُ رسمتها على جدار غرفتها، إن ابنتا محترفة في الرسم جدًا؟!

- (فادي).

- نعم عزيزتي؟

- هل يجب أن أعود ب(جميلة) إلى الكوخ مرة أخرى؟.. أشعر بعدم الأمان هنا.

- لا تخافي على ابنتنا يا (إمي)؛ فأنا حولها دائمًا، ولن أسمح بمكروه يصيبها، دعيها تتعلم وتكمل حياتها.

- ما يحرقني من الداخل كل مرة أن ذلك المجرم لم يمُت بعد.

- لا يوجد أصعب من أن تعامَلِي كمجنونة يا (إمي)؛ فقد يحاسبه القدر بطريقته.

تدخل (جميلة):

- إلى من تتحدثين يا أمي؟!

- ماذا؟! لا أتحدث لاحد حبيبتي، هيا قولي لي كيف كان يومُكِ الدراسي اليوم؟!

- كان قصيرًا ولكنه جميل، أصبح لدي خمسة أصدقاء.

- واو خمسة أصدقاء من الأسبوع الأول! إنه شيء رائع، هيا اذهبي وغيّري ملابسك حالما أحضّر الغداء، ونرى ماذا أخذتِ اليوم من دروس.

تجلس (جميلة) على الطاولة لنتناول الغداء، ثم تحضر حقيبتها المدرسية ونفتح أول كتاب:

- ضع دائرة على الأشياء التي تحبها؟

- وهل يمكن يا ماما أن أضع دائرة عليكِ وعلى رسمة أبي؟!

أداعبها ضاحكة لبراءتها:

- نعم... ويمكنني أن أضع على أنفك الصغير هذا دائرة أيضًا.

أرسم على أنفها بالقلم دائرة، لترسم على وجهي دائرة كبيرة، فتقوم راكضة تجلب رسمة أبيها وتضع عليها دائرة كبيرة، لأتأمل براءتها وأضمها بجفون عيني..

- همم، نحن الآن نحتاج للاستحمام.
- هيا للاستحماااام، هل نأخذ أبي معنا؟

آخذ منها الرسمة وأعلقها على جدار الصالة:

- لا عزيزتي، والدكِ لا يستحم ليلًا.

***

تمر الليالي والأيام والسنوات ليأتي اليوم وأحضر حفل تخرجها من المرحلة المتوسطة، تستلم جائزة تفوقها، يبرق دمع عيني فرحًا:

- يا إلهي! أرأيتَ يا (فادي)، إن ابنتك تكبر سريعًا، يمضي الوقت ولا أشعر به.

يمسك يدي يقبّلها:

- أشكركِ يا (إمي)، إنها ثمار مجهودكِ وسهركِ وتعبك.

تركض نحوي لتحتضنني بقوة..

ينظر لي فادي ويبتسم:

- إنني أحسدكِ على تلك الضمة، كل ما أتمناه أن أعود فقط؛ لأشعر بأحضان ابنتي (جميلة)، أضمها بذرعيّ وأشعرها بمدى حبي لها.

كنت أتمنى أن أحقق أمنية (فادي) تلك بأي شكل من الأشكال، كم أكره عندما يطلب شيئًا أعجز عن تحقيقه.

أقود متوجهين للمنزل؛ لتفاتحني (جميلة) بموضوع النادي:

- ماما، لقد ذهبنا من أسبوع تقريبًا إلى نادي الفرسان كرحلة مدرسية ووجدتهم يعلّمون فيه أساليب الفنون القتال وأعجَبَتْني، أريد أن أتعلم كيف أدافع عن نفسي، هل يمكنني أن أشترك فيها إذا سمحتِ؟

أبتسم متذكرة كلام (فادي)، وكم كان يتمنى أن يعلمها فنون القتال، وأن يجعل منها فتاة قوية:

- بالطبع عزيزتي يمكنك.
- ييياايي، شكرًا لكِ، أحبك.
- ولكن بشرط.
- _ما هو؟!
- ستعلّمينِي إياها بعد أن تتقنيها.
- بالتأكيد ماما، لكن انتبهي؛ فأنا قوية.

أركن السيارة، لندخل للمنزل و(جميلة) متحمسة للاشتراك في ذلك النادي وتبدأ التمرن بضرب الهواء، أضحك عليها:

- انتبهي كي لا تؤذي نفسك.
- ماما.
- نعم عزيزتي.
- أريد أن أطلب منك شيئًا أخيرًا.
- بالتأكيد عزيزتي، اطلبي ما شئتِ.
- أريد التحدث إلى أبي كما تفعلين، أرجوك، فقد اشتقتُ له كثيرا وأتمنى أن أراه وأتحدث معه، أعلم أنكِ تستطيعين التحدث معه ورؤيته، كنتُ أشاهدك دائمًا، أخبريني كيف؟!

أبتسم لها وأنا أضمها لصدري:

- اشعري بقلبك، هناك مقولة تقول (إذا اشتقتَ لأحد كثيرًا ولم يسمح

لك القدر برؤيته، فأغلِق عينيك واتّبع قلبك، سيأخذك لعالمه، وحينها لن يستطيع أحد منعك منه، حتى القدر)، وهكذا أستطيع أن أسافر له وأتحدث معه وأراه.

تغمض (جميلة) عينها تحاول:

- اشتقتُ لك يا أبي، أريد أن ألقاك.

تقف (جميلة) منبهرة وهي مغمضة عينها:

- يا إلهي! أمي... إنه أبي.

- (جميلة) ابنتي!.. ناجت روحي كثيرًا؛ لتري ذلك الوجه المنير.

- أحبك أبي.

ترفع يدها تحاول ضمه؛ ليخطو فادي نحوها وعينه تذرف الدمع غير مصدق، ليعرض أجمل مشهد أمامي..

ليتك هنا حقًا..

تفتح (جميلة) عينها بعد عناق طويل لتتلاشى صورة (فادي):

- هه، أرأيتِ هذا يا أمي؟!

- نعم عزيزتي، فأنا أعيش أيامي على هذا يا (جميلة)، لو لم أشعر بأبيكِ طوال هذه السنوات لما استطعت أن أتماسك كل هذه المدة، هو من كان يقويني ويوقظني ويحتضنني في ضعفي ووهني.

- أنا لم أشعر بجسده، ولكن.. شعرت بقلبي يخفق بقوة وهو قريب مني.

- لأن جسده تحت الرمال يا عزيزتي، أما طيفه فلا يفارقنا أينما ذهبنا.

..

اعتادت (جميلة) الذهاب إلى النادي كل يوم، وعندما تعود تطبّق ما

تعلمته معي، أرفع من شأنها مازحة:

- واو، كيف أصبحتِ محترفة هكذا يا (جميلة)؟!

تعتدل في وقفتها تؤدي سلام الفنون القتالية:

- أحم، اسمي المقاتلة (جميلة) إذا سمحتِ.

- هههه، حسنًا يا مقاتلة، هل يمكنكِ الذهاب وترتيب غرفتك الآن حالما أغسل الملابس.

- حسنًا ماما.

تذهب بحركاتها القتالية متوجهة لغرفتها، لأذهب أنا وأجمع الملابس المتسخة.. لأجد قميصَ (فادي) بين ملابس (جميلة)، أُمسكُ به... أقربه لأنفي التي اشتاقت لرائحته، تدمع عيني.. لأشعر بيده على كتفي:

- تماسكي حبيبتي، ها أنا بجانبك.

- أرأيتَ ابنتك كم أصبحت بارعة في فنون القتال؟!

- هههه، نعم رأيتها، تطبق الحركات المؤلمة عليّ منذ قليل.

أكمل جمع الملابس وأدخلها إلى الغسالة، أذهب لألقي نظرة على (جميلة) في غرفتها؛ لأجدها تعرض لأبيها حركاتها، وهو يستنجد بي، أضحك عليهما وأغلق الباب..

***

الفصل السادس عشر
(الحياة ـ جميلة)

أستيقظ على ألم شديد في رأسي، يا إلهي! هل عاد ذلك الألم المزعج؟ أقوم من على السرير لأفتح الدرج، ألتقط المسكن مبتسمة:

- أتذكُر ذلك اليوم؟ كم كنت مخادعًا.

- وكيف أنساه؟! إنه يوم سعادتي... يوم امتلاكي الحياة من جديد.

- هيا كف عن كلامك الجميل أيها المشاكس واذهب لتوقظ ابنتك.

- هههه، لا... لا تقلقي على (جميلة) فهي لم تنم أساسًا، كنا نتحدث سويًا منذ قليل.

آخذ المسكن ليهدأ رأسي قليلًا وأذهب لغرفة جميلة، أجدها جالسة على الأرض مغمضة عينها تنادي على والدها:

- من الواضح أن والدك سيأخذ كل اهتمامك الآن وتنسيني.

تتوجه نحوي تحتضنني، وتراضيني بلسان أبيها المعسول:

- ومن يستطيع أن ينسى أمه الحبوبة الطيوبة اللذوذة، أنا فقط كنت أتحدث مع بابا على موضوع يخصني.

- همم، موضوع ماذا يا ترى؟!

ترتبك (جميلة) وتغير الموضوع:

- ها؟ ماذا؟ من قال موضوع؟! ماما أنا أتضور جوعًا، هل في المطبخ طعام؟!

تنزل للمطبخ هاربة:

- أصبحتَ تعرف عن (جميلة) أكثر مني!

يضحك (فادي):

- والله هي من قالت لي الموضوع، وحلّفتني أن لا أحكيه إلا أن تتأكد منه.

يتنهد مبتسمًا وعينه على (جميلة):

- انتبهي عليها يا (إمي)؛ فقد كبرت ابنتنا، أخاف أن يجرحها أحد.

- همم، لقد فهمت الآن.

أذهب متوجهة لـ(جميلة)، لينتبه (فادي) لما قال:

- ماذا؟! لا ليس كما تظنين، انتظري.

أقف بجانبها أُعدّ لي كوب قهوة وهي تعدّ طبق الكورنفليكس خاصتها، قلقة أن أسألها حول الموضوع، تذهب هاربة إلى المائدة تتناول فطورها؛ لأذهب وأجلس جوارها، أنظر لها وهي كأنها لا تراني:

- (جميلة)!

تتعب من المراوغة:

- حسنًا أمي سوف أخبرك.

- كنت سأطلب منكِ أن تناوليني السكر من جانبك، ولكن هيّا لا مشكلة، أخبريني ما كنتِ ستخبرينني به.

تتكلم (جميلة) بخجل وعيناها ليسَت بعينِي:

- لقد طلب مني زميلي اليوم بأن أرافقه إلى الحفل الذي يقيمه النادي غدًا.

- وما المشكلة؟! فلْترَافقِيه ولتستمتعا بالحفل.

- لا... لا أريد يا أمي.
- لماذا؟! هل هناك امر يزعجك؟!
- لا.. ولكن لم أعد أريد الذهاب إلى ذلك النادي مجددًا.
- همم أرى أن المشكلة في النادي الآن، غريبة؛ لقد كنتِ متحمسة له.
- نعم... أنا أحب النادي لا مشكلة فيه، ولكن..
- ولكن ماذا عزيزتي؟! أخرجِي ما بخاطرك.
- بصراحة هناك شخص أشعر دائمًا بأنه يراقبني، وأنا أتمرن، وأنا أتحدث مع أصحابي، وكأنه يريد أن يقول شيئًا ولكنه لا يتحدث، فقط يراقبني من بعيد، وكل ما تأتي عيني بعينه صدفة أشعر بارتباك وتزداد نبضات قلبي، حتى أنّني بالأمس أدخلني الكابتن قتالًا مع أحد زملائي، كنت أشعر أن عينه عليّ فاختل تركيزي وضربني خصمي في قدمي، أجده مسرعًا نحوي وهو يعرج يتحسّس قدمي قلقًا ويقول: هل أنتِ بخير؟! هل أصابك مكروه؟!
- يعرج؟!
- نعم، فمن الظاهر أنه مصاب إصابة بليغة في قدمه.
- حسنًا أكملي.
- لقد توتر وقتها ولم أستطع التصرف، ولكنه لم يتركني حتى اطمأَنّ عليّ وأحضَرَ لي العصير والكثير من الشكولاتة، فقط.. هذا كل ما حدث.
- وما المزعج في كل ما حصل؟!
- لا أعرف يا أمي، ولكن.. أشعر بشيء غريب تجاهه، لا أريد أن يتطور ما أشعره به فأتعلّق بتفاصيله واهتمامه وأن أعتاد رؤيته.

لا أعلم هل أقول لها صحيح ما تقوليه أم خاطئ، لا أريدها أن تتألم، لا أريد أن تتعلق فيؤذيها القدر ويضعها في شباك طُعمِه، ولكن في نفس الوقت من حقّها أن تجرب وأن تعيش حياتها.

أبتسم وأضمها إلى أحضاني:

- لا تقلقي ولا تفكري كثيرًا يا (جميلة)، اتركي الأمور تجري على سجيّتها.

***

أنظر إلى نفسي في المرآة بعد أن بلغت الستين عامًا، أتفقّد الشعر الأبيض الذي ينبت بين شعري والتجاعيد التي بدأت الظهور على ملامح وجهي! يا إلهي! لقد كبِرتِ يا (إمي)!

أصبحت (جميلة) في السنة الثالثة لدراسة الفنون الجميلة، اعتادت الذهاب إلى الجامعة صباحًا والعمل في إحدى المتاجر ليلًا، فقد تركت شغفها بالفنون القتالية والنادي منذ أن دخلت الجامعة، اطمأنّ قلبي عليها؛ فقد كبرَت وأصبحت تستطيع الاعتماد على نفسها..

آآآآه، ألمُ الرأس هذا أصبح لا يحتمل! لقد جعلني أُدمِن على المسكنات، ذهبتُ أتفقد (جميلة) بغرفتها، ولكن أين تلك الفتاة:

- (جميلة)! (جميلة)! أين ذهبت؟! إنها العاشرة ليلًا، من المفترض أن عملها انتهى!
- لا تقلقي عليها، إنها في مشوار وسيوصلها.
- سيوصلها؟! من هذا؟ وأي مشوار تتحدث عنه؟!

تدخل (جميلة) للمنزل وهي تحمل باقة ورد، جاءت تقبّلني وهي مبتهجة:

- آسفة ماما... أعرف أني تأخرت عليك.

أنظر لها متعجبة:

- أرى أشياء غريبة اليوم، ما هو سر سعادتك هذه، ومِمَّن باقة الورد؟!

تبتسم خجلًا وهي تنظر للأرض، أمازحها:

- هاتي، هيّا قولي، إني منصتة لثرثرتك.

- هل تذكرين ذلك الشاب الذي حدثتكِ عنه أيام النادي وفنون القتال هذه؟

- نعم أتذكر!

- وجدته اليوم قادم للمتجر يحمل باقة الورد وينظر لي وهو لا يتحدث، وكأن أحد أكل لسانه، كان مرتبكًا وكلامه متقطعًا، قال:

- كيف حالكِ (جميلة)؟! أنا (كريم)، أتتذكريني؟

- نعم على ما أظن، كنتَ في نادي الفرسان، صحيح؟!

- آه نعم صحيح، لم أعد أراكِ هناك منذ فترة طويلة.

- نعم تركته.

- لماذا؟! أقصد ما السبب؟!

- لا يوجد سبب معين، ولكن لم يعد لي وقت لممارسة الفنون القتالية.

- آه.. حسنًا، آه تفضلي هذه الباقة من أجلك.

- حقًا! شكرًا، ولكن ما المناسبة؟!

- لا يوجد مناسبة، فقد اشتقت لـ... أقصد يعني قد تحبّين الأزهار.

كان مرتبكًا جدًا، وكنت أنا أيضًا كذلك ولكني لم أظهر هذا، ظل واقفًا لم يجد شيئًا آخر يقوله:

- آه حسنًا، سأذهب أنا كي لا أعطلك عن العمل.

- لماذا؟! أقصد لقد انتهيت من عملي على كل حال.

- حقًا! إذًا هل يمكنني أن أوصلك؟!
- همم، حسنًا لا مشكلة.

..

- يا الله! يا أمي كم هو وسيم! كنت لا أريده أن يذهب من أمامي أو يكفّ عن الحديث.
- همم، هذا ما حدث إذًا! أسمعتَ يا (فادي).
- هههه، لا تقلقي يا ماما؛ أبي كان معنا أساسًا.
- آهٍ يا (إمي)، كان دمي يغلي كل ما رأيته ينظر لها، ولكن أشعر بأنه شاب صالح.
- يا للروعة! الكل يعلم بشأن (كريم) هذا سواي أنا!.. (جميلة) فَلتُحضرِيه غدًا على الغداء ولنأكل سويًا، تشوقتُ لرؤيته.
- ههه، حسنًا سأعرض عليه.

أمسك رأسي أشعر بألم حاد؛ لتتوجه (جميلة) نحوي خائفة:

- ماما! ما بكِ؟!
- لا... لا تقلقي، لقد اعتدت ذلك، إنه صداع مذمن.
- هل أحضر لكِ دواءك؟
- نعم.

تعطيني كأس الماء والمسكن لأتناوله:

- هيا يا ماما، اصعدي وارتاحي قليلًا، يبدو عليكِ الإرهاق.

أصعد لسريري مرهقة، أشعر أني لست على ما يرام، أشعر بالإعياء الشديد، ليغلب عليّ النوم.

..

توقظني (جميلة) صباحًا بأطباق الإفطار على سريري:

- هيا حبيبتي، قومي وتناولي إفطارك، لم أنسَ كوب قهوتك أيضًا.
- يبارك لي الله فيكِ عزيزتي.
- هيا ماما، أنا ذاهبة للجامعة الآن، هل أحضر لكِ شيئًا وأنا قادمة.
- لا حبيبتي، انتبهي لنفسكِ ولا تتأخري أنتِ و(كريم).

تذهب (جميلة) إلى جامعتها، لأحدث (فادي):

- لقد ورثَت ابنتك قلبك الحنون واهتمامك.
- ومن يرى امرأة مثلك ولا يكون حنونًا رؤوفًا عليها!
- (فادي).. أشعر في هذه الأيام أني أقترب إليك أكثر .
- لا تقولي شيئًا كهذا يا (إمي) أرجوك، فليطل الله بعمرك.
- أرأيتَ كيف تغيرتُ وذهب جمالي الذي كنتَ تتحدث عنه دائمًا.
- ما زلتُ أرى جمال قلبك، فما الأجسام إلا فانية.. هيا دعينا نذهب إلى الطبيب ونطمئنّ عليكِ... هيا.
- لا، ليس اليوم.

يقف يساعدني بإلباسي مصرًا على أن أذهب وأكشف عن ذلك الألم المذمن، أوقفُ تاكسي فلم أعد قادرة على القيادة بسبب الرعشة التي أصابت يدي وضعف نظري.

أدخل إلى نفس تلك المشفى التي كنت أعمل بها منذ زمن، كل شيء تغير بها؛ الجدران، الموظفين، الأجهزة.. سحبت رقم كشف وجلستُ أنتظر..

يظهر رقمي للدخول إلى غرفة ٢٢، لأجد طبيبًا يغزو رأسه الشعر الأبيض، يلتفت لي:

- (إمي)!
- (طارق)!
- كيف حالك؟!
- ههه والله كما ترى، ولكن ماذا جاء بك لقسم المخ والأعصاب؟!
- لقد تركتُ إدارة قسم الطوارئ بعدما ذهبتِ وعدتُ للعمل بشهادتي هنا، لقد كبرتِ وتقدم بكِ العمر يا (إمي).
- الحمد لله على كل شيء.
- قولي مِمَّ تشتكين؟
- أشعر بألم حاد مذمن في رأسي لا أعرف سببه.
- همم، هيا تعالي ونامي على سرير الإشاعة ذاك.

أستلقي ويقوم (طارق) بأخذ أشعه لرأسي، ينظر لها وهو في حيرة من أمره وعلى وجهه علامات التعجب:

- ما بكَ يا (طارق)! أخبرني بما تقوله الأشعة.
- لا أعلم بما أخبرك به يا (إمي).
- قل يا (طارق)، فلم يعد شيء يؤثر بي.

يخفض رأسه بحزن عاجز عن نطقها:

- لديكِ تورّمٌ كبير في رأسك.. أنتِ مصابه بسرطان المخ.

***

الفصل السابع عشر
(ها أنا قادمة)

انتهيت من إعداد الغداء الذي أصبح شاقًا بالنسبة لي..

جاءت (جميلة) بصحبة (كريم):

- ماما، لقد عدت.

لأجد شابًا وسيمًا بلباس أنيق يتقدم نحوي وهو يعرج حاملًا الزهور، يقبل يدي:

- مرحبًا سيدتي سررتُ برؤيتك، حكَت لي عنكِ (جميلة) كثيرًا حتى شوّقتْني لرؤيتك.
- يعلم الله كم أنا سعيدة برؤيتك اليوم يا بني.
- حسنًا، سأذهب أنا وأضع الغداء على الطاولة.

انظر يا (فادي) كيف تتبعُها عينه، إنه يذكّرني بك:

- كيف وجدتِ مجال الطب يا سيدتي، فقد قالت لي (جميلة) بأنكِ دكتورة، صحيح؟
- نعم صحيح، ولكني تركت هذه المهنة منذ زمن كي أهتم بها.
- هههه، هكذا (جميلة) تُفقِدُ من أحبّها توازن حياته.
- إني أسمعكما، ما بالكما بي؟! هيا فقد أصبحت المائدة جاهزة.

يساعدني (كريم) على الوقوف والجلوس على المائدة لنبدأ بالأكل:

- سلمت يداكِ يا سيدتي.

- بالهناء والشفاء عزيزي، ولا داعي بمناداتي سيدتي، قل لي (إمي) فقط، لا تشعرني بأنني جدة.

يسكت (كريم) وكأن شيئًا ما يدور بذهنه:

- ما بكَ (كريم)؟! هيا كُل عزيزي.

- لا أنا بخير، شيء ما تذكرته فقط.

- صحيح فلتحكِ لماما قصة قدَمِك، قد تستطيع مساعدتك وتقديم بعض الحلول.

- دعينا لا نحزنها يا (جميلة)، أود أن تظل ابتسامتها هذه وقتًا أطول.

- احكِ يا بني قلبي لم يعد يكترث، كنت سأسألك ما بال قدمك.

- لقد أُصِبتُ بكسر مضاعف في قدمي من خمسة عشر سنة ولازِلتُ لا أستطيع الوقوف عليها بشكل طبيعي.

- وما سبب ذلك الكسر القوي؟!

- سبّبه أبي، عندما كنت في العاشرة من عمري كان يتشاجر والداي كثيرًا، وفي يوم رأيت أبي يضرب أمي بعنف، لم أستطع أن أتحمل رؤية أمي وهي تتعذب ويخرج الدم من وجهها، أسرعتُ إلى أبي أحاول إبعاده عن أمي، يحملني أبي من ذراعي بقوة لأجد نفسي أحلق في الهواء وأرتطم على سلم المنزل متدحرجًا، فأشعر بألم مبرح في قدمي، ألمٌ لا أستطيع وصفه، صرختُ باكيًا بأعلى صوت عندي، كنت أرى دموع أمي تصرخ راكضة إليّ، ولكني لم أشعر بشيء بعدها، أفتح عيني أنادي على أمي لأجد طبيبة لطيفه تهدئني وتسكّن آلامي بكلماتها، قالت لي كلامًا لن أنساه أبدًا، أصبحَت تتحدث معي وكأنها أختي الكبرى، لا أتذكر اسمها تحديدًا، ولكن عرفت بعد ذلك أنها تكفلت بتكاليف عمليتي،

حتى جاءت جدتي لتعتني بي طيلة هذه السنوات بعيدًا عن والديّ.

أبتسم ضاحكة على هذا القدر الغريب بعدما عرفت أن (كريم) هو ذلك الصبي الذي أسعفته بيديّ يومًا ما، عرفت الآن سبب راحة قلبي له:

- قصتك مؤثرة حقًا يا بني، فليحمِيك الله ويجزيك خيرًا عما سلبه منك .

تحمل (جميلة) الأطباق بعد أن انتهينا، ليقترب مني (كريم) وعينه تترقب قدومها:

- أستاذة (إمي)، كنت أريد أن أفاتحكِ في موضوع، قد لا يكون وقتًا مناسبًا ولكن.. لم أعد استطيع أن أنتظر أكثر، يجب أن تعلمي أنني أحببتُ ابنتك (جميلة) منذ فتره طويلة، ولكن لم أكن أريد أن أعترف لها بذلك فتتعلق بشخص لم يكن مؤهلًا لإسعادها أو الاهتمام بها، ولم أكن أستطيع أن أقابك حضرتكِ وأعدكِ بأني سأحافظ عليها وأنا لازِلْتُ لا أملك وظيفة، والآن أنا أحمل شهادة الهندسة، وأمتلك مصنعًا لتصنيع الأجهزة الإلكترونية، وأريدها منكِ أمام الله لتكون لي زوجة، أعلم بوفاة والدها، ولهذا أريد منكِ أن توافقي أرجوك، فلا يوجد شيء أمامي يعطّلني عن أن أسعدها بحبي لها، سأمنحها كل ما تريد وكل ما تطلبينه مني.

يبتسم قلبي سعيدًا بما رُزِقَت (جميلة)، أربت على كتفيه:

- أحمد الله على وجود شخصًا صالحًا مثلك لابنتي يا (كريم)، فقد جعلت قلبي يطمئن عليها أخيرًا.

***

يرن هاتفي:

- مرحبًا (طارق).

- (إمي)، أرجوكِ تعالي وأجري العملية، سأتكلف بها كاملة.

- يا (طارق) لا تطلب مني مرة أخرى فأنت تعلم جوابي، أنا لم أعد أريد تلك الحياة، أتشوّق أن أراه وأن أتحرّر من أحكام القدر، لن تشعر بما أشعر به.
- (إمي) أرجوك، لا تفعلي هذا، ستصابين بشلل إن لم تجري العملية الآن.
- أشكرك يا (طارق)، آسفة.

أغلق الهاتف متوجهة لـ(جميلة) في غرفتها:

- ماذا تفعل عروستي الجميلة؟!
- تعالي ماما، كنا نبحث أنا وأبي على أفضل فستان لهذه السنة.
- همم، من دوني، حسنًا سوف أريكما.

أجلس بجانبها أمسح على رأسها وعيني سعيدة لسعادتها:

- انظر يا (فادي)، كَبُرت ابنتك وتريد مفارقتي.

تحتضنني بقلب (جميلة) الصغير الذي اشتقت له:

- ومن يريد أو يستطيع فراقك يا أمي، من دونك لا معنى لحياتي، فليطل الله بعمرك حتى ترِيني وأنا أحمل حفيدكِ بين يدي.

يعتصر قلبي حزنًا، هل حقًا سأرى طفلكِ يا (جميلة) وأحمله في أحضاني قبل أن أموت؟! اللهم لا تفرّق بينها وبين السعادة، ولا تجعل القدر يحزنها مهما طال.

***

يأتي صباح يوم جديد لينقص من أيام حياتي المعدودة؛ فقد أصبحتُ أشعر بالإرهاق والإعياء الشديد، يا إلهي لقد تقدم بيَ العمر كثيرًا، وأصبح جسمي هزيلًا، التجاعيد تشكّل خارطة الزمن على جسمي، وعظام قدمي الهشة التي لم أعد أستطيع الوقوف عليها كثيرًا:

- هيا يا (إمي)، ستتأخرين على أهم يوم في حياتنا.

- آه، صحيح لقد نسيت أن اليوم زفاف (جميلة)، هيا يا (فادي) أعطني يدك ساعدني على الوقوف بسرعة.

تصل السيارة، توصلنا إلى القاعة التي ستقام فيها حفل زفاف قرة عيني وحبيبتي.

تُزفّ (جميلة) أمام عيني ليَدِ (كريم) ليقوما برقصة على مسرحهما، تدمع عيني فرحًا بجمالها ويبتهج قلبي، كم كان متشوقًا لهذه اللحظة، يجلس طيف (فادي) بجانبي، يمسك يدي وهو سعيد ومفتخر بما قدمته لابنتنا، أتذكر ذلك اليوم الذي كنا نقف فيه على المسرح مكانهما.

..

جاء (كريم) و(جميلة) يجلسان قربي قبل أن يسافرا لقضاء شهر العسل، يضع (كريم) يده على يدي برفق:

- سنشتاق إليك كثيرًا يا أمي، لم نجلس معكي بما يكفي، سامحينا.

يبتسم له قلبي مطمئنًا:

- اذهبا يا أجمل ما في حياتي، ليرعاكما الله ويحفظكما.. اذهبا حتى لا تتأخرا على طائرتكما، اذهبا.. لا تجعلا قلبي يتعلق بكما أكثر.

تعانقني (جميلة) مودعة وأنا أشعر أنه العناق الأخير، لا أرغب بأن ينتهي.

***

تمر السنة كاليوم، ويبلغ عمري السبعين عامًا، يتفشَّى الورم أنحاء رأسي ويتمكن منها، وأصابُ بشللٍ نصفيٍّ ليرقد جسمي على السرير، كان (طارق) على اتصال دائم وعلى متابعة لحالتي، كان حزينًا جدًا لأجلي، يزورني في كل حين والآخر، أوصيته بأن لا يخبر (جميلة) ما جرى لي، يكفي خبر وفاتي على آذانها.

..

ستي التي أكتبها على أوراقي الّتي طالما استمَعت وأحسَنتُ الإنصات لما في داخلي، أكتبها قبل أن يتفشّى الشلل أنحاء جسدي، أكتبها كي أضعها للقدر، لعله يقرأها ذات يوم ويشعر أنه تلاعب بمشاعري وأحاسيسي وبدموعي كثيرًا.

زارتني (جميلة) و(كريم) قبل أن أذرف أنفاسي الأخيرة، دخلا عليّ غرفتي وهم يحملاه.. رأته عيني قبل أن تفارق الحياة.. نعم رأيتُ حفيدي الوسيم بين أحضانهما ليضعوه على صدري، أتمنى لو أستطيع أن أطوّقه بذراعي وأمسح على شعر رأسه الناعم، ولكن.. لم أعد قادرة، فقد تفشَّى الشلل أنحاء جسدي بالكامل.

وها هي روحي تصعد وتتركهما بدموعهما عليّ.. ها هي تتحرّر من أحكام القدر.. ها هيَ تلتقي به بعد طول انتظار.. تبحث عنه عيني.. لقد جئتُ.. أين أنت يا (فادي).. اشتقتُ لك.

***

الفصل الثامن عشر
(لم أتوقع)

يا من تقرأ مذكراتي.. ها أنت تقرأ آخر كلماتي، قد تُفيدُك أو تيقظك أو تحميك من أحكام القدر:

لا تتجاهل مَن أخلص في حبك ووضعك جميع أهدافه، فقد لا يكون لديه سببٌ للعيش سواك، قد تتمنّى يومًا لو أن أحدًا أحبّك بنصف مقدار ما أحبك هو.

واعترِف بحبك إن أحبَبتَ حتى لو واجهتَ الرفض، فلن يكون الألم بمقدار ألمك أنت عندما ترى من تحبّ أمامك طيلة الوقت ولسانك يعجز عن النطق، فقد أصبح لشخص آخر وليس لك..

لم يكن الحب يومًا محرمًا، فلولا الحب لما كنّا على وجه الأرض..

اختَر الوقت المناسب، عش وكأنه آخر يوم لك، انظر له وكأنك تراه لآخر مرة..

وانتبه! فلا تحبه بذلك القدْر، فقد يسلبه منك القدَر وتفقده في أي وقت لم تكن تتوقعه..

لا أقتصر حب المحبين، بل كل ما نبض قلبك لرؤيته، كل من آمَنتَ له وصدّقته، كل من أخلص لكَ وآمن بك، كل من وجدتَ فيه نفْسَك، كل من قضيتَ أوقاتك معه وأنت تشعر برضًى معه، كل من اهتم بك ورعاك، أحبّهم بكل ما لديك، أحبهم باعتدال؛ حتى لا يشعر قلبك بالقسوة تجاه نفسك، ولا يشعر بالقسوة تجاه القدر، تفادى قول كلمة.... – لم أتوقع–

***

نبذة عن الكاتب:

- يسرية إخلاص الديب.
- مشروع كاتبة وملحنة مصرية.
- من مواليد عام ٢٠٠٠ بالمملكة العربية السعودية.
- تدرس هندسة الميكاترونك بجامعة AMA بمملكة البحرين.
- (لم أتوقع) هي الرواية الأولى لها.

Twitter: USRIA-ALDEEB

:Facebook

Private account: Usria Aldeeb

Public page: @1USRIAALDEEB1

Instagram: Usria Aldeeb

Youtube page: Oosa Aldeeb

Snapchat: oosa-aldeeb

Email: usriaaldeeb2000@gmail.com

قراؤنا الأعزاء.. تحقيقًا لحلم التواصل بين الكاتب والقارئ ودور النشر، والاهتمام بمعرفة رأيك دائمًا ننتظر أن تتواصل معنا لتقييم أعمالنا عبر الإيميل، أو عبر صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، من أجل تحقيق حلم بناء جيل واعي ونثر بذور الثقافة بالمجتمع والمناداة بتنشئة عقول أساسها الثقافة والعلم.

مدير النشر: أسماء فخر الدين
شهرزاد للنشر والتوزيع

E-mail: shahrazadpub@gmail.com
facebook: Shahrazadpub
shahrazadpub2015
twitter: shahrazadpub

للشراء عبر صفحة البوك ستور الإلكتروني:
صفحتنا على الفيس بوك: شهرزاد بوك ستور